

UNIVERSAL
LIBRARY

OU_234837

UNIVERSAL
LIBRARY

تفسير الفاتحة

مبدؤ بمقدمة التفسير

ملخص من دروس الامام العليم والاستاذ الحكيم
الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية الآن
حفظه الله آمين

ويليه ثلاث مقالات تفسيرية له أيضاً

(أولها) في قوله تعالى (وان تصبهم حسنة يقولوا
من عند الله) الخ الآية مع الجمع بينها وبين قوله تعالى
(ما أصابك من حسنة فمن الله) الخ الآية (وثانها)
بيان مسألة الغرائب ودلحظ الشبه فيها وتفسير الآيات
أيضاً (وثالثها) توضيح مسألة زيد وزينب أو ابطال
التبني في الاسلام وتفسير الآيات الواردة في ذلك

(الزم طبعه احمد عمر الحمصاني الازهري)

حقوق الطبع محفوظة لصاحب المنار

(طبعت بمطبعة الموسوعات بباب الخلق بمصر سنة ١٣١٩)

لصاحبها اسماعيل حانظ

٢٩٤٥١٣

ع - ات

(٢) ١٢٢٢

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ م. ا. ا. ا.

حمداً لمن علم الأميين بالقلم، علم الانسان ما لم يعلم، وصلاةً
وسلاماً على سيدنا محمد المبعوث للأمم، وعلى آله وصحبه وسلم
وبعد فان القرآن هو هداية الله العظمى لعباده صلح
باتباعه من لم يعرف من قبله اصلاحاً، وأفلح به من لم يجد
من دونه فلاحاً، وقد أنشأ المسلمون يشعرون في هذه الايام
بأنهم ما فقدوا مجد سلفهم الصالحين، وتلك السعادة التي كانت
لآبائهم الأولين، الا لأنهم لم يهتدوا به كهدايتهم، ولم يأخذوه
بقوة كأخذهم، ورجع طلاب الاصلاح فيهم الى قاعدة الامام
مالك بن أنس رحمه الله تعالى وهي « لا يصلح آخر هذه الامة
الا بما صلح به أولها » ورأوا الامة في حاجة شديدة الى فهم
القرآن من حيث كونه هادياً الى السعادة ومرشداً الى كمال
العمران الاجتماعي

ومن فضل الله تعالى على الانسان انه لا يستعد لشيء
من الخير الا ويفيضة عليه بفضله وكرمه. فالهم محمداً عبده
(مشتي الديار المصرية لهذا العهد) ان يفتح للمسلمين هذا الباب،

وهو عبدُ آتاه الله الحكمة وفصل الخطاب ، وجعله إماماً
لأولى الألباب ، فانشأ يفهر القرآن على هذا الوجه في الجامع
الازهر الشريف في مجالس يحضرها العلماء والطلاب وكثير
من الوجهاء ورجال الحكومة وأجمع أهل الفضل على أن هذا
التفسير هو الذي ينفخ روح الحياة المليّة في المسلمين وأنه يجب
نشره في جميع الاقطار ورغب الى كثير من أهل القطر
المصري وغيره ان أنشر في « المنار » خلاصة ما تقرره الاستاذ
في الدرس لأن المنار هو المجلة الدينية الوحيدة المنتشرة في الاقطار
فوافقت رغبتهم رغبتى بل علمت ان هذا واجب عليّ وان المنار ما
اشيء الا لئله فطفت أكتب خلاصة التفسير وأنشرها في
المنار مثابعة بعد عرضها على الامام المفسر وإجازتها من لدنه
وبعد ان تم نشر تفسير الفاتحة رأيت الرغبات متوجهة الى
طبعه في كتاب على حدة لأن هذه السورة هي التي لا يجهلها
مسلم في الدنيا لانها من فرائض الصلاة وأركانها ولأنه أجمل فيها
ما فصل في الكتاب كله تفصيلاً . فعزمت على تجريد ما من « المنار »
وطبعها مستقلة ليعم نشرها وينفع بها من لم يقرأ المجلة . ولكن
الشواغل الكثيرة قضت بالارجاء والتسويف حتى انبرى أخى في

الله تعالى الفاضل الغيور الشيخ احمد عمر المحمصاني الأزهرى
لمساعدتي على الطبع والنشر فأنفذناه بعد عرضه ثانية على الاستاذ
واجازته وتصحيحه وزيادته بعض فوائده. ورأينا ان نضم الى تفسير
الفاتحة مقدمة التفسير وتفسير بعض الآيات التي أشكل على العلماء
حلها لانها من المتشابهات التي فتن المسلمين بها أهل التأويل. وأكثر
القدح بسببها المخالفون لنا في الدين، وهي (١) ما يتعلق بنسبة
أفعال العبد اليه تارة والى الله تعالى تارة اخرى بما يوهم التناقض في
قوله تعالى « وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ
سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ » وقوله عز
وجل « مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ
نَفْسِكَ » (٢) ما استدلوا به على مسألة الفرائق الشهيرة القادحة
في الثقة بالوحي لو صحت. (٣) ما ورد في شأن تطلق زيد بن حارثة
زينب بنت جحش رضي الله عنهما وتزوج النبي صلى الله عليه وسلم
بها الحكمة إبطال سنة النبي السيئة. وقد كتب الامام المفتي تفسير
هذه الآيات بقلمه كتابة حلت عقد كل إشكال ونشرت في
المنار داخضة للشبهات، منيرة للظلمات، قامعة للأباطيل، وعلى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ
الْدِينِ * إِيَّاكَ نَبَدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ * إِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ *
صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ * غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ
وَلَا الضَّالِّينَ * آمِينَ

* مقدمة التفسير *

فهم القرآن بالتعقل والتدبر • للتفسير وجوه شتى • القرآن حجة
قائمة الى يوم القيامة ولا بد لكل مسلم أن يكون له من فهمه نصيب
بقدر طاقته واستعداده • مراتب التفسير • ما الذي يجب على الناس
من التفسير • التفسير فرض كفاية • الحاجة الشديدة الى التفسير اليوم
وفيما بعده • جاهلية الناس اليوم أعرق في الجهل من الجاهلية الاولى

تأثير القرآن العظيم واعناء العلماء الاولين باللغة العربية

التكلم في تفسير القرآن ليس بالأمر السهل وربما كان
من أصعب الأمور وأهمها وما كل صعب يترك ولذلك لا ينبغي
أن يمتنع الناس عن طلبه • ووجوه الصعوبة كثيرة أهمها أن
القرآن كلام سماوي تنزل من حضرة الربوبية التي لا يكتفه
كنها على قلب أكمل الانبياء وهو شتمل على معارف عالية .

ومطالب سامية . لا يشرف عليها الا اصحاب النفوس الزاكية
والعقول الصافية . وان الطالب له يجد أمامه من الهبة
والجلال . الفاضلين من حضرة الكمال . ما يأخذ بتلييه
ويكاد يحول دون مطلوبه . ولكن الله تعالى خفف علينا
الأمر بأن أمرنا بالفهم والتعقل لكلامه لأنه انما أنزل
الكتاب نوراً وهدى مبيّناً للناس شرائعه وأحكامه ولا يكون
كذلك الا إذا كانوا يفهمونه

والتفسير الذي نطلبه هو فهم الكتاب من حيث هو
دين يرشد الناس الى مافيه سعادتهم في حياتهم الدنيا وحياتهم
الآخرة فان هذا هو المقصد الأعلى منه وما وراء هذا من
المباحث تابع له أو وسيلة لتحصيله

التفسير له وجوه شتى أحدها النظر في أساليب الكتاب
ومعانيه وما اشتمل عليه من أنواع البلاغة ليعرف به علو
الكلام وامتيازه على غيره من القول . سلك هذا المسلك
الزمخشري وقد ألمّ بشيء من المقاصد الأخرى ونحنا نحوه
آخرون (ثانيها) الاعراب وقد اعتنى بهذا أتوام توسعوا في
بيان وجوهه وما تحتمله الألفاظ منها (ثالثها) تتبع القصص

وقد سلك هذا المسلك أقوام زادوا في قصص القرآن ماشاؤا
من كتب التاريخ والاسرائيليات ولم يعتمدوا على التوراة
والانجيل والكتب المعتمدة عند أهل الكتاب وغيرهم بل
أخذوا جميع ما سمعوه عنهم من غير تفريق بين غث وسمين
ولا تنقيح لما يخالف الشرع ولا يطابق العقل (رابعها) غريب
القرآن (خامسها) الاحكام الشرعية من عبادات ومعاملات
والاستنباط منها (سادسها) الكلام في أصول العقائد ومقارعة
الزائعين ومحاجة المختلفين وللإمام الرازي العناية الكبرى بهذا
النوع (سابعها) المواعظ والرقائق وقد مزجها الذين ولعوا
بها بحكايات المتصوفة والعباد وخرجوا ببعض ذلك عن حدود
الفضائل والآداب التي وضعها القرآن (ثامنها) ما يسمونه
بالإشارة وقد اشتبه على الناس فيه كلام الباطنية بكلام الصوفية
ومن ذلك التفسير الذي ينسبونه للشيخ الأكبر محي الدين
ابن عربي . وإنما هو للقاشاني الباطني الشهير وفيه من النزغات
ما يتبرأ منه دين الله وكتابه العزيز

وقد عرفت ان الاكثاري مقصد خاص من هذه
المقاصد يخرج بالكثير عن المقصود من الكتاب الإلهي

ويذهب به في مذاهب تنسيه معناه الحقيقي لهذا كان الذي
نعنى به من التفسير هو ما سبق ذكره ويتبناه بالارباب بيان
وجوه البلاغة بقدر ما يحتمله المعنى وتحقيق الاعراب على
الوجه الذي يليق بفصاحة القرآن وبلاغته

ويمكن أن يقول بعض أهل هذا العصر لا حاجة الى
التفسير والنظر في القرآن لان الائمة السابقين نظروا في
الكتاب والسنة واستنبطوا الاحكام منها فما علينا الا أن ننظر
في كتبهم ونستغني بها . هكذا زعم بعضهم ولو صح هذا الزعم
ولكان طلب التفسير عبثاً يضيع به الوقت سدى وهو على ما فيه
من تعظيم شأن الفقه مخالف لاجماع الامة من النبي صلى الله
عليه وسلم الى آخر واحد من المؤمنين ولا أدري كيف يخطر
هذا على بال مسلم

الاحكام العملية التي جرى الاصطلاح على تسميتها فقهاً هي
أقل ما جاء في القرآن وإن فيه من التهذيب ودعوة الارواح الى
ما فيه سعادتها ورفعها من حضيض الجهالة الى أوج المعرفة
وارشادها الى طريقة الحياة الاجتماعية ما لا يستغني عنه من
يؤمن بالله واليوم الآخر وما هو أجدربالدخول في الفقه الحقيقي

ولا يوجد هذا الارشاد الا في القرآن

وفيما أخذ منه كإحياء العلوم حظ عظيم من علم الهديب
ولكن سلطان القرآن على نفوس الذين يفهمونه وتأثيره في
قلوب الذين يتلونه حق تلاوته لا يساهمه فيه كلام كما ان
الكثير من حكمه ومعارفه لم يكشف عنها اللثام ولم يفصح عنها
عالم ولا إمام . ثم إن أئمة الدين قالوا إن القرآن سيبقى حجة
على كل فرد من أفراد البشر الى يوم القيامة لحديث (والقرآن حجة
ملك أو عليك) ولا يعقل هذا الا بفهمه والا صابغة من حكمته وحكمه
خاطب الله بالقرآن من كان في زمن التنزيل ولم يوجه
الخطاب اليهم لخصوصية في أشخاصهم بل لأنهم من أفراد
النوع الانساني الذي أنزل القرآن لهدايته . يقول الله تعالى
(يا أيها الناس اتقوا ربكم) فهل يعقل انه يرضى منا بأن لانفهم
قوله هذا ونكتفي بالنظر في قول ناظر نظر فيه لم يأتنا من الله
وحيٌ بوجوب اتباعه لاجلته ولا تفصيلاً . كلا انه يجب على
كل واحد من الناس أن يفهم آيات الكتاب بقدر طاقته لافرق
بين عالم وجاهل . يكفي العامي من فهم قوله تعالى (قد أفلح
المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون) الخ ما يعطيه الظاهر

من الآيات وأن الذين جُمعت أوصافهم في الآيات الكريمة لهم الفوز والفلاح عند الله تعالى ويكفي في معرفة الأوصاف ان يعرف معنى الخشوع والاعراض عن اللغو وما لا خير فيه والاقبال على ما فيه فائدة له دنيوية أو أخروية وبذل المال في الزكاة والوفاء بالمهد وصدق الوعد والعفة عن آيانه الفاحشة وأن من فارق هذه الأوصاف الى اضدادها فهو المتعمدي حدود الله المتعرض لغضبه . وفهم هذه المعاني مما يسهل على المؤمن من أي طبقة كان ومن أهل أي لغة كان ومن الممكن أن يتناول كل أحد من القرآن بقدر ما يجذب نفسه الى الخير ويصرفها عن الشر فان الله تعالى أنزله لهدايتنا وهو يعلم منا كل أنواع الضعف الذي نحن عليه . وهناك مرتبة تملو على هذه وهي من فروض الكفاية

للتفسير مراتب أدناها أن يبين بالأجمال ما يشرب القلب عظمة الله تعالى وتزيهه ويصرف النفس عن الشر ويجذبها الى الخير وهذه هي التي قلنا أنها متيسرة لكل أحد وأما المرتبة العليا فهي لا تتم إلا بأمور

(أحدها) فهم حقائق الألفاظ المفردة التي أودعها

القرآن بحيث يحقق المفسر ذلك من استعمالات أهل اللغة غير مكثف بقول فلان وفهم فلان فإن كثيراً من الالفاظ كانت تستعمل في زمن التنزيل لمعان ثم غلبت على غيرها بعد ذلك بزمن قريب أو بعيد من ذلك لفظ التأويل اشتهر بمعنى التفسير مطلقاً أو على وجه مخصوص ولكنه جاء في القرآن بمعان أخرى كقوله تعالى (هل ينظرون الا تأويله يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق) فما هذا التأويل^(١) يجب على من يريد الفهم الصحيح أن يتبع الاصطلاحات التي حدثت في الملة ليفرق بينها وبين ماورد في الكتاب فكثيراً ما يفسر المفسرون كلمات القرآن بالاصطلاحات التي حدثت في الملة بعد القرون الثلاثة الأولى^(٢) فعلى المدقق أن يفسر القرآن بحسب المعاني التي كانت مستعملة في عصر

(١) لا أتذكر أن الاستاذ ذكر معناه عند التمثيل وهو العاقبة

وما يعد به (أى القرآن) من المثوبة والعقوبة

(٢) من ذلك لفظ الولي معناه في القرآن غالباً الناصر والموالي وأولياء الله أنصار دينه من أهل الايمان والتقوى وقد اصطالحوا بعد ذلك على أن الاولياء صنف من الناس تظهر على أيديهم الخوارق ويتصرفون في الكون بما وراء الاسات ولم يعرف الصحابة هذا المعنى

زوله والأحسن أن يفهم اللفظ من القرآن نفسه بأن يجمع ما تكرر في مواضع منه وينظر فيه فرما استعمل بعمان مختلفة كلفظ الهداية (سيأتي تفسيره في الفاتحة) وغيره ويحقق كيف يتفق معناه مع جملة معنى الآية فيعرف المعنى المطلوب من بين معانيه . وقد قالوا ان القرآن يفسر بعضه ببعض وان أفضل قرينة تقوم على حقيقة معنى اللفظ موافقته لما سبق له من القول واتفاقه مع جملة المعنى وائتلافه مع القصد الذي جاء له الكتاب بجملة

(ثانيها) الأساليب فينبغي أن يكون عنده من علمها ما يفهم به هذه الأساليب الرفيعة وذلك يحصل بممارسة الكلام البليغ ومزاولته مع التفتن لملكته ومحاسنه والعناية بالوقوف على مراد المتكلم منه . نعم اننا لا نتسامى الى فهم مراد الله تعالى كله على وجه الكمال والتمام ولكن يمكننا فهم ما نرتدي به بقدر الطاقة . ويحتاج في هذا الى علم الاعراب وعلم الأساليب (المعاني والبيان) ولكن مجرد العلم بهذه الفنون وفهم مسائلها وحفظ أحكامها لا يفيد المطلوب . ترون في كتب العربية أن العرب كانوا مسددين في النطق يتكلمون بما يوافق القواعد

قبل أن توضع . أتحسبون أن ذلك كان طبيعياً لهم . كلا وإنما هي ملكة مكتسبة بالسمع والمحاطة ولذلك صار أبناء العرب أشد عجمة من العجم عند ما اختلطوا بهم ولو كان طبيعياً ذاتياً لهم لما فقدوه في مدة خمسين سنة من بعد الهجرة

(ثالثها) علم أحوال البشر — فقد أنزل الله هذا الكتاب وجعله آخر الكتب وبين فيه ما لم بينه في غيره . بين فيه كثيراً من أحوال الخلق وطبائعه والسنن الإلهية في البشر وقص علينا أحسن القصص عن الأمم وسيرها الموافقة لسنته فيها فلا بد للناظر في هذا الكتاب من النظر في أحوال البشر في أطوارهم وأدوارهم ومناشئ اختلاف أحوالهم من قوة وضعف وعز وذل وعلم وجهل وإيمان وكفر ومن العلم بأحوال العالم الكبير علويه وسفليه ويحتاج في هذا إلى فنون كثيرة من أهمها التاريخ بأنواعه

قال الاستاذ — أنا لا أعقل كيف يمكن لاحد ان يفسر قوله تعالى (كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين) الآية — وهو لا يعرف أحوال البشر وكيف اتحدوا وكيف تفرقوا وما معنى تلك الوحدة التي كانوا عليها وهل

كانت نافعة أم ضارّة وماذا كان من آثار بعثة النبيين فيهم
أجل القرآن الكلام عن الأهم وعن السنن الالهية وعن
آياته في السموات والارض وفي الآفاق والانفس وهو اجمال
صادر عن أحاط بكل شيء علما وأمرنا بالنظر والتفكير والسير
في الارض لنفهم اجماله بالتفصيل الذي يزيدنا ارتقاء وكمالا ولو
اكتفيننا من علم الكون بنظرة في ظاهره لكننا كمن يعتبر
الكتاب بلون جلده لا بما حواه من علم وحكمة

(رابعها) العلم بوجه هداية البشر كلهم بالقرآن فيجب على
المفسر القائم بهذا الغرض الكفائي أن يعلم ما كان عليه الناس
في عصر النبوة من العرب وغيرهم لان القرآن ينادي بأن الناس
كلهم كانوا في شقاء وضلال وأن النبي صلى الله عليه وسلم
بعث به لهدايتهم وإسماعدهم . وكيف يفهم المفسر ما قبخته
الآيات من عوائدهم على وجه الحقيقة أو ما يقرب منها اذا لم
يكن عارفا بأحوالهم وما كانوا عليه . هل يكتفى من علماء
القرآن دعاة الدين والمناضلين عنه بالتقليد بأن يقولوا تقليداً
لغيرهم إن الناس كانوا على باطل وأن القرآن دحض أباطيلهم
في الجملة . كلا

(خامسها) العلم بسيرة النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه وما كانوا عليه من علم وعمل وتصرف في الشؤون دنيويها وأخرويها = فعلم مما ذكرنا أن التفسير قسمان (أحدهما) جافٌ مبعد عن الله وكتابه وهو ما يقصد به حل الالفاظ واعراب الجمل وبيان ما ترمى اليه تلك العبارات والاشارات من النكت الفنية وهذا لا ينبغي أن يسمى تفسيراً وإنما هو ضرب من التمرين في الفنون كالنحو والمعاني وغيرها و (ثانيهما) وهو التفسير الذي قلنا إنه يجب على الناس على أنه فرض كفاية هو الذي يستجمع تلك الشروط لاجل أن تستعمل لغايتها وهو ذهاب المفسر الى فهم مراد القائل من القول وحكمة التشريع في العقائد والاخلاق والاحكام على الوجه الذي يجذب الارواح ويسوقها الى العمل والهداية المودعة في الكلام ليتحقق فيه معنى قوله (هدى ورجمة) ونحوهما من الاوصاف. فالقصد الحقيقي وراء كل تلك الشروط والفنون وهو الاهتمام بالقرآن (قال الاستاذ) وهذا هو الفرض الاول الذي أرمي اليه

في قراءة التفسير

تكلم الاستاذ أيضاً عن التفسير والتأويل في اصطلاح

العلماء ثم بين عظيم شأن تفسير القرآن وفهمه بما مثاله : مثل الناطقين بالعربية الآن — من العراق الى نهاية بلاد مراكش — بالنسبة الى العرب في لغتهم كمثل قوم من الاعاجم مخالطين للعرب وجد في كلامهم بسبب المخالطة مفردات كثيرة من العربية فهو لاء الاقوام أشد حاجة الى التفسير وفهم القرآن من المسلمين الاولين لاسيما من كانوا في القرن الثالث حيث بدى بكتابة التفسير وأحسن المسلمون بشدة حاجتهم اليه ولا شك ان من يأتي بعدنا يكون احوج منا الى ذلك اذا بقينا على تقهقرنا ولكن اذا يسر الله لنا نهضة لاهياء لغتنا وديننا فرما يكون من بعدنا احسن حالا منا .

التفسير عند قومنا اليوم ومن قبل اليوم بقرون هر عبارة عن الاطلاع على ما قاله بعض العلماء في كتب التفسير على ما في كلامهم من اختلاف يتنزه عنه القرآن « ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً » ولت اهل العناية بالاطلاع على كتب التفسير يطلبون لانفسهم معنى تستقر عليه افهامهم في العلم بمعاني الكتاب ثم يبثونه في الناس ويحملونهم عليه . لم يطلبوا ذلك وانما طلبوا صناعة يفاخرون بالتفنن فيها وعمارون

فيها من يباريهم في طلبها ولا يخرجون لإظهار البراعة في تحصيلها عن حد الاكثار من القول واختراع الوجوه من التأويل والاعراب في الابداع عن مقاصد التنزيل . ان الله تعالى لا يسألنا يوم القيامة عن أقوال الناس وما فهموه وانما يسألنا عن كتابه الذي أنزله لارشادنا وهدايتنا وعن سنة نبيه الذي بين لنا ما نزل الينا (وأنزلنا اليك الذكرك لتبين للناس ما نزل اليهم) يسألنا هل بلغتكم الرسالة . هل تدبرتم ما بلغتكم؟ هل عقلتم ما عنه نهيتكم وما به امرتم؟ وهل عملتم بارشاد القرآن واهتديتم بهدي النبي واتبعتم سنته؟ عجباً لنا ننتظر هذا السؤال ونحن في هذا الاعراض عن القرآن وهديه في الغفلة والغرور

معرفةنا بالقرآن كمعرفةنا بالله تعالى — أول ما يلحق الوليد عندنا من معرفة الله تعالى هو اسم (الله) تبارك وتعالى يتعلمه بالايمان الكاذبة كقوله (والله لقد فعلت كذا وكذا والله ما فعلت كذا) وكذلك القرآن يسمع الصبي ممن يعيش معهم أنه كلام الله تعالى ولا يعقل معنى ذلك ثم لا يعرف من تعظيم القرآن الا ما يعظمه به سائر المسلمين الذين يتربى بينهم وذلك بامرين (أحدهما) اعتقاد أن آة كذا اذا كتبت ومحيت

بماء وشربه صاحب مرض كذا يثني وأن من حمل القرآن لا يقربه جن ولا شيطان ويبارك له في كذا وكذا إلى غير ذلك مما هو مشهور ومعروف للعامة أكثر مما هو معروف للخاصة . ومع صرف النظر عن صحة هذا وعدم صحته نقول إن فيه مبالغة في التعظيم عظيمة جداً ولكنها (وبالأسف) لا تزيد عن تعظيم التراب الذي يؤخذ من بعض الأضربة ابتغاء هذه المنافع والفوائد نفسها . ونحو هذا ما يعلق على الأطفال من التعاويذ والتنجيس كالحرق والعظام والتمايم المشتملة على الطلسمات والكلمات العجمية المنقولة عن بعض الأمم الوثنية . هذا الضرب من تعظيم القرآن نسميه إذا جرينا على سنة القرآن عبادة للقرآن لا عبادة لله به (ثانيهما) الهزّة والحركة المخصوصة والكلمات المألوفة التي تصدر ممن يسمعون القرآن إذا كان القارئ رخيماً الصوت حسن الأداء عارفاً بالتطريب على أصول النغم والسبب في هذه اللذة والنشوة هو حسن الصوت والنغم بل أقوى سبب لذلك هو بعد السامع عن فهم القرآن وأعني بالفهم ما يكون عن نوق سليم تصيبه أساليب القرآن بمجائبها وتملكه مواضعها فتشغله عما بين يديه

مما سواه . لا أريد الفهم المأخوذ بالتسليم الاعمى من الكتب
أخذاً جافاً لم يصحبه ذلك الذوق وما يتبعه من رقة الشعور
ولطف الوجدان اللذين هما مدار التعقل والتأثر والفهم والتدبر .
لهذا كله يمكننا أن نقول ان الجاهلية اليوم أشد من الجاهلية
والضالين في زمن النبي صلى الله عليه وسلم لان من أولئك من قال
الله تعالى فيهم (يعرفونه كما يعرفون أبناءهم) ومعرفة الحق أمر
عظيم شريف نعم ربما كان أثم صاحبها مع الجحود أشد ولكنه
يكون دائماً ملوماً من نفسه على الاعراض عن الحق وهذا
اللوم يزل ما في نفسه من الاصرار على الباطل

كان البدوي راعي الغنم يسمع القرآن فيخر له ساجداً لما
عنده من رقة الاحساس ولطف الشعور فهل يقاس هذا
بأي متعلم اليوم؟ . أرأيت أهل جزيرة العرب كيف انضوا
الى الاسلام بمجاذبية القرآن لما كان لهم من رقة المدارك التي
كانت سبب الانجذاب الى الحق . وأشار الاستاذ هنا الى البنت
الاعرابية التي فطنت لاشتمال الآية الآتية على أمرين ونهين
وبشارتين . ومجمل الخبر أن الاصمعي قال سمعت نبتاً من
الاعراب خماسة أو سداسة تُنشد

استغفر الله لذنبى كله قتلنا انساناً بغير حله

مثل غزال ناعم فى دله وانتصف الليل ولم اصله

فقلت لها قاتلك الله ما أفصحك فقالت ويحك أيمد هذا

فصاحة مع قوله تعالى « وأوحينا الى أم موسى أن أرضعيه فاذا

خفت عليه فألقيه فى اليم ولا تحزني ولا تحزني إنا رادوه اليك

وجاعلوه من المرسلين » جمع فى آية واحدة بين أمرين

ونهيين وبشارتين

لما رأى علماء المسلمين فى الصدر الاول تأثير القرآن فى

جذب قلوب الناس الى الاسلام وأن الاسلام لا يحفظ الا به

ولما كان العرب قد اختلطوا بالعجم وفهم من دخل فى الاسلام

من الاعاجم ما فهمه علماء العرب أجمع كل على وجوب حفظ

اللغة العربية ودوتوا لها الدواوين ووضعوا لها الفنون . نعم

إن الاشتغال بلغة الامة وآدابها فضيلة فى نفسه ومادة من

مواد حياتها ولا حياة لامة ماتت لغتها ولكن لم يكن هذا

وحده هو الحامل لسلف الامة على حفظ اللغة بمفرداتها

وأساليبها وآدابها وانما الحامل لهم على ذلك ما ذكرنا . ألف

العلامة الاسفراخى كتابا فى الفرق ختمه بذكر أهل السنة

ومزاياهم وعدّ من فضائلهم التي امتازوا بها على سائر الفرق
التبريز في اللغة وآدابها وبين ذلك بأجلى بيان . فإين هذه المزايا
وأين آثارها في فهم القرآن بل وفهم ما دونه من الكلام البليغ؟
وقد بينا وجه الحاجة في التفسير الى تحصيل ملكة الذوق
العربي والى غير ذلك من الامور التي يتوقف عليها فهم القرآن
﴿ سورة الفاتحة ﴾

سميت الفاتحة فاتحة لأنها أول القرآن في هذا الترتيب
(وتكلم عن لفظ الفاتحة وعن التاء فيه) وتسمى أم الكتاب
وقالوا إن حديث النبي عن تسميتها هذا الاسم موضوع .
ثم قال . يتكلمون عند الكلام عن السور على المكي والمدنيّ
وهو ينفيد في معرفة الناسخ والمنسوخ وليس في الفاتحة ناسخ
ولا منسوخ وهي مكية خلافاً لمجاهد فالاجماع على أن الصلاة
كانت بالفاتحة لأول فرضيتها ولا ريب أن ذلك كان في مكة
وقالوا هي المراد بالسبع المثاني في قوله تعالى (ولقد آتيناك سبعاً
من المثاني والقران العظيم) وهو مكي بالنص . وقال بعضهم
انها نزلت مرتين مرة بمكة عند فرضية الصلاة وأخرى بالمدينة
حين حوّلت القبلة وكان صاحب هذا القول اراد الجمع بين

القولين وليس بشيء . وقال كثيرون انها اول سورة انزلت بتمامها ثم رجح الاستاذ الحكيم انها اول منازل على الاطلاق ولم يستثن قوله تعالى (اقرأ باسم ربك) ونزع في الاستدلال على ذلك منزعا غريباً في حكمة القران وفقه الدين فقال ما مثاله ومن آية ذلك ان السنة الالهية في هذا الكون سواء كان كون ايجاد او كون تشريع ان يظهر سبحانه الشيء مجملاً ثم يتبعه التفصيل بعد ذلك تدريجاً وما مثل الهدايات الالهية الا مثل البذرة والشجرة العظيمة فهي في بدايتها مادة حياة تحتوي على جميع اصولها ثم تنمو بالتدريج حتى تسبق فروعها بعد ان تعظم دوحتها ثم تجود عليك بثمرها . والفاتحة مشتملة على مجمل مافى القران وكل مافيه تفصيل الاصول التي وضعت فيها ولست اعنى بهذا ما يهبون عنه بالاشارة ودلالة الحروف كقولهم ان اسرار القران في الفاتحة و اسرار الفاتحة في البسملة و اسرار البسملة في الباء و اسرار الباء في نقطتها فان هذا لم يثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم واصحابه عليهم الرضوان ولا هو معقول في نفسه وانما هو من مخترعات الغلاة الذين ذهب بهم الغلو إلى اعدام القران خاصته وهي البيان

(قال) وبيان ما أريد أن مانزل القرآن لاجله أمور
 (أحدها) التوحيد لان الناس كانوا كلهم وثنيين وان كان بعضهم
 يدعي التوحيد (ثانيها) وعد من أخذ به وتبشيره بحسن المشوبة
 ووعيد من لم يأخذ به وإنذاره بسوء العقوبة . والوعد يشمل
 ما للامة وما للأفراد فيم نعم الدنيا والآخرة وسعادتهما والوعيد
 كذلك يشمل نقمهما وشقاءهما فقد وعد الله المؤمنين
 بالاستخلاف في الارض والعزة والسلطان والسيادة وأوعد
 المخالفين بالخزي والشقاء في الدنيا كما وعد في الآخرة بالجنة
 والنعيم وأوعد بنار الجحيم (ثالثها) العبادة التي تحيي التوحيد
 في القلوب وتثبتته في النفوس (رابعها) بيان سبيل السعادة
 وكيفية السير فيه الموصل الى نعم الدنيا والآخرة (خامسها)
 قصص من وقف عند حدود الله تعالى وأخذ بأحكام دينه
 وأخبار الذين تعدوا حدوده ونبذوا أحكام دينه ظهرياً لاجل
 الاعتبار واختيار طريق المحسنين

هذه هي الامور التي احتوى عليها القرآن وفيها حياة
 الناس وسعادتهم الدنيوية والأخرية والفاتحة مشتملة عليها
 اجمالاً بغير ما شك ولا ريب . فاما التوحيد ففي قوله تعالى (الحمد

لله رب العالمين) لانه ناطق بان كل حمد وثناء يصدر عن نعمة ما
فهو له تعالى ولا يصح ذلك الا اذا كان سبحانه مصدر كل
نعمة في الكون تستوجب الحمد ومنها نعمة الخالق والايجاد
والتربية والتنمية ولم يكتف باستلزام العبارة لهذا المعنى فصرح
به بقوله (رب العالمين) ولفظ (رب) ليس معناه المالك
والسيد فقط بل فيه معنى التربية والائناء وهو صريح
بان كل نعمة يراها الانسان في نفسه وفي الآفاق منه
عز وجل فليس في الكون متصرف بالايجاد والاشقاء
والاسعاد سواه

التوحيد اهم ماجاء لاجله الدين ولذلك لم يكتف في الفاتحة
بمجرد الاشارة اليه بل استكمله بقوله (اياك نعبد واياك
نستعين) فاجتث بذلك جذور الشرك والوثنية التي كانت
فاشية في جميع الامم وهي اتخاذ اولياء من دون الله تعتقد لهم
السلطة الغيبية ويدعون لذلك من دون الله ويستعان بهم على
قضاء الحوائج في الدنيا ويتقرب بهم الى الله زلفى وجميع ما في
القرآن من آيات التوحيد ومقارعة المشركين هو تفصيل لهذا
الاجمال

واما الوعد والوعيد فالأول منهما مطويٌّ في (بسم الله الرحمن الرحيم) فذكرُ الرحمة في أول الكتاب — وهي التي وسعت كل شيء — وعدُّ بالأحسان لاسيما وقد كررها مرة ثانية تنبيها لنا على أن أمره إيانا بتوحيده وعبادته رحمة منه سبحانه بنا لأنه لمصلحتنا ومنفعتنا . وقوله تعالى (مالا يوم الدين) يتضمن الوعد والوعيد معاً لأن معنى الدين الخضوع أى إن له تعالى في ذلك اليوم السلطان المطلق والسيادة التي لا نزاع فيها لاحقيقة ولا ادعاء وأن العالم كله يكون فيه خاضعاً لعظمته ظاهراً وباطناً يرجو رحمته ويخشى عذابه وهذا يتضمن الوعد والوعيد . أو معنى الدين الجزاء وهو إما ثواب للمحسن واما عقاب للمسيء وذلك وعد ووعيد . وزد على ذلك أنه ذكر بعد ذلك (الصراط المستقيم) وهو الذي من سلكه فاز ومن تنكبته هلك وذلك يستلزم الوعد والوعيد

وأما العبادة فبعد أن ذكرت في مقام التوحيد بقوله «اياك نعبد واياك نستعين» أوضح معناها بعض الإيضاح بقوله تعالى (اهدنا الصراط المستقيم) أى انه قد وضع لنا صراطاً سيبينه ويحدده ويكون مناط السيادة في الاستقامة عليه والشقاء في

الانحراف عنه وهذه الاستقامة عليه هي هداية العبادة ويشبه هذا قوله تعالى (والمصر ان الانسان لفي خسر الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر) فالتواصي بالحق والصبر هو كمال العبادة بعد التوحيد . والفاتحة بجملة ما تنفخ روح العبادة في المتدبر لها وروح العبادة هي إشراق القلوب خشية الله وهيبته والرجاء لفضله لا الأعمال المعروفة من فعل وكفّ وحركات اللسان والأعضاء فقد ذكرت العبادة في الفاتحة قبل ذكر الصلاة وأحكامها والصيام وأيامه وكانت هذه الروح في المسلمين قبل أن يكلفوا بهذه الأعمال البدنية وقبل نزول أحكامها التي فصلت في القرآن تفصيلا ما وانما الحركات والأعمال مما يتوسل به الى حقيقة العبادة ونحو العبادة الفكر والمبرة

وأما الاخبار والقصص ففي قوله تعالى (صراط الذين أنعمت عليهم) تصريح بأن هنالك قوما تقدموا وقد شرع الله شرائع لهدایتهم وصالح يصيح ألا فانظروا في الشؤون العامة التي كانوا عليها واعتبروا بها . كما قال تعالى لنبيه يا عوف الى الاقتداء بمن كان قبله من الانساء (أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده)

حيث بين أن القصص إنما هو للعظة والاعتبار . وفي قوله تعالى
 (غير المغضوب عليهم ولا الضالين) تصريح بأن من دون المنعم
 عليهم فريقان فريق ضلَّ عن صراط الله وفريق جاحده وعاند
 من يدعو إليه فكان محفوفاً بالغضب الإلهي والحزني في هذه
 الحياة الدنيا . وبقية القرآن يفصل لنا في أخبار الأمم هذا
 الأجمال على الوجه الذي يفيد العبرة فيشرح حال الظالمين الذين
 قاوموا الحق وحال الذين حافظوا عليه وصبروا على ما أصابهم
 في سبيله .

فتبين من مجموع ما تقدم أن الفاتحة قد اشتملت إجمالاً
 على الأصول التي يفصلها القرآن تفصيلاً فكان انزالها أولاً
 موافقاً لسنة الله تعالى في الإبداع . وعلى هذا تكون الفاتحة
 جدرة بأن تسمى (أم الكتاب) كما نقول إن النواة أم النخلة
 فإن النواة مشتملة على شجرة النخلة كلها حقيقة لا كما قال
 بعضهم إن المعنى في ذلك أن الأم تكون أولاً ويأتي بعدها
 الأولاد

﴿ بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ ﴾

لا أذكر ما قاله الاستاذ في البسمة من حيث لفظها
واعرابها وهل هي آية أو جزء آية ومن الفاتحة أوليت منها
فان الخلاف في ذلك مشهور وقد اختصر الاستاذ القول فيه
اختصاراً وقال انها على كل حال من القرآن فتتكلم عليها كسائر
الآيات

القرآن امامنا وقدوتنا فافتتاحه بهذه الكلمة ارشاد
لنا بأن نفتح أعمالنا بها فما معنى هذا؟ ليس معناه أن نفتح
أعمالنا باسم من أسماء الله تعالى بأن نذكره على سبيل التبرك
أو الاستعانة به بل أن نقول هذه العبارة (بسم الله الرحمن الرحيم)
فإنها مطلوبة لذاتها

عند ما نقول انى اذكر اسم الله تعالى كالعزير والحكيم
لا تعنى انك تذكر لفظ (اسم) فلو كان قولهم ان المراد من
الابتداء بالكلمة « بسم الله » التبرك باسم الله هو الصواب
لكان ينبغي ان يكون قولك (بالله الرحمن الرحيم) مثل
(بسم الله الرحمن الرحيم) وقوله تعالى (باسم الله مجراها

ومرساها) وقد قال بعضهم إن الاضافة ههنا للبيان أى أفتح
 كلامي باسم هو الله ولكن هذا يقتضى أن يكون لفظ الرحمن
 الرحيم وارداً على اللفظ وهو غير صحيح وإرادة أن الاسماء
 الثلاثة هى المبينة للفظ الاسم تحمل ظاهر فما المقصود اذا
 من هذا التعبير ؟

مثل هذا التعبير مألوف عند جميع الأمم ومنهم العرب
 وهو أن الواحد منهم اذا أراد أن يفعل أمراً ما لاجل أمير
 أو عظيم بحيث يكون متجرداً من نسبته اليه ومنسلخاً عنه
 يقول أعمله باسم فلان ويذكر اسم ذلك الامير أو السلطان
 لان اسم الشئ دليل وعنوان عليه

فاذا كنت أعمل عملاً لا يكون له وجود ولا عنه أثر، لولا
 السلطان الذى به أمر، أقول إن عملي هذا باسم السلطان أى
 أنه معنون باسمه ولولاه لما عملته. فمعنى ابتدئ عملي (بسم الله
 الرحمن الرحيم) أنى أعمل بأمره وله لاي ولا اعمله باسمي
 مُستقلاً به على انى فلان فكأنى أقول ان هذا العمل لله لالحظ
 نفسى وفيه وجه آخر وهو أن القدرة التى انشأت بها العمل هى
 من الله تعالى فلولا ما منحني منها لم أعمل شيئاً فلم يصدر عنى

هذا العمل الا باسم الله ولم يكن باسمي اذ لولا ما آتاني من القوة عليه لم أستطع أن آتيه وقد تم هذا المعنى بلفظ (الرحمن الرحيم) كما هو ظاهر. وحاصل المعنى أنني أعمل عملي متبرئاً من أن يكون باسمي بل هو باسمه تعالى لأنني استمد القوة والعناية منه وارجو إحسانه عليه فلولا له لم أقدر عليه ولم أعمله بل وما كنت عاملاً له على تقدير القدرة عليه لولا أمره ورجاء فضله فلفظ الاسم معناه مراد ومعنى لفظ الجلالة مراد أيضاً وكذلك كل من لفظ الرحمن والرحيم. وهذا الاستعمال معروف مألوف في كل اللغات واقربه اليك اليوم ما ترونه في المحاكم النظامية حيث يتدوّن الاحكام قولاً وكتابة باسم السلطان فلان أو الخديو فلان ومعنى البسملة في الفاتحة أن جميع ما يقرر في القرآن من الاحكام والآيات وغيرها هو لله ومنه نيس لأحد غير الله فيه شيء

واختصر الاستاذ في الكلام على لفظ اسم ولفظ الجلالة لان الكلام فيهما مشهور. قال والرحمن والرحيم مشتقان من الرحمة وهي معنى يللم بالقلب فيبعث صاحبه ويعمله على الاحسان الى غيره وهو محال على الله تعالى بالمعنى المعروف عند البشر

لأنه في البشر ألم في النفس شفاؤه الاحسان والله تعالى منزله
 عن الآلام والانفعالات فلمعنى المقصود بالنسبة اليه من الرحمة
 أثرها وهو الاحسان . وقد مشى الجلال في تفسيره وتبعه
 الصبان على أن الرحمن والرحيم بمعنى واحد وان الثاني تأكيد
 للأول ومن العجيب أن يصدر مثل هذا القول عن عالم مسلم
 وما هي الا غفلة نسأل الله أن يسامح صاحبها

(قال الاستاذ) وأنا لا أجزئ لمسلم أن يقول في نفسه
 أو بلسانه ان في القران كلمة تغاير اخرى ثم تأتي للمجرد تأكيد
 غيرها بدون ان يكون لها في نفسها معنى تستقل به نعم قد يكون
 في معنى الكلمة ما يزيد معنى الاخرى تقريراً او ايضاحاً ولكن
 الذي لا اجيزه ان يكون معنى الكلمة هو عين معنى الاخرى
 بدون زيادة ثم يؤتى بها للمجرد التأكيد لاغير بحيث تكون
 مما يسمى بالمترادف في عرف اهل اللغة فان ذلك لا يقع الا
 في كلام من يرمي في لفظه الى مجرد التثنيق والتزويق وفي
 العربية طرق للتأكيد ليس هذا منها واما ما يسمونه بالحرف
 الزائد الذي يأتي للتأكيد فهو حرف وضع لذلك ومعناه هو
 التأكيد وليس معناه معنى الكلمة التي يؤكدها فالباء في قوله تعالى

«وكفى بالله شهيداً» تؤكد معنى اتصال الكفاية بجانب الله جل شأنه بذاتها ومعناها الذي وضعت له ومعنى وصفها بالزيادة أنها كذلك في الاعراب وكذلك معنى من في قوله «وما هم بضارين به من أحد الا باذن الله» ونحو ذلك. اما التكرار للتأكيد أو التقرير أو التهويل فامر سائغ في ابلغ الكلام عند ما يظهر ذلك القصد منه كتكرار جملة «فبأي آلاء ربكم اتكذبان» ونحوها عقيب ذكر كل نعمة وهي عند التأمل ليست مكررة فان معناها أفهذه النعمة تكذبان وهكذا كل ما جاء في القرآن على هذا النحو

والجمهور على أن معنى الرحمن المنعم بجلائل النعم ومعنى الرحيم المنعم بدقائقها وبعضهم يقول أن الرحمن هو المنعم بنعم عامة تشمل الكافرين مع غيرهم والرحيم المنعم بالنعم الخاصة بالمومنين وكل هذا تحكم في اللغة مبني على أن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى ولكن الزيادة تدل على زيادة الوصف مطلقاً فصفة الرحمن تدل على كثرة الاحسان الذي يعطيه سواء كان جليلاً أو دقيقاً وأما كون انفراد الاحسان التي يدل عليها اللفظ الاكثر حروفاً أعظم من أفراد الاحسان التي يدل عليها

اللفظ الأقل حروفاً فهو غير معني ولا مراد. وقد قارب من قال ان معنى الرحمن المحسن بالاحسان العام ولكنه أخطأ في تخصيص مدلول الرحيم بالمومنين ولعل الذي حمل من قال إن الثاني . مؤكداً للاول على قوله هذا هو عدم الاقتناع بما قالوه من التفرقة مع عدم التفطن لما هو أحسن منه

(قال الاستاذ) والذي أقول : ان صيغة فعلان تدل على وصف فعليّ فيه معنى المبالغة كفعال وهو في استعمال اللغة للصفات العارضة كعطشان وغرثان وغضبان وأما صيغة فعيل فأنها تدل في الاستعمال على المعاني الثابتة كالأخلاق والسجايا في الناس كعليم وحكيم وحليم وجميل . والقرآن لا يخرج عن الأسلوب العربيّ البليغ في الحكاية عن صفات الله عز وجل التي تملو عن مماثلة صفات المخلوقين فلفظ الرحمن يدل على من تصدر عنه آثار الرحمة بالفعل وهي إفاضة النعم والاحسان ولفظ الرحيم يدل على منشأ هذه الرحمة والاحسان وعلى انها من الصفات الثابتة الواجبة . وبهذا المعنى لا يستغنى بأحد الوصفين عن الآخر ولا يكون الثاني مؤكداً للاول فاذا سمع العربي وصف الله جل ثناؤه بالرحمن وفهم منه انه المفيض للنعم

فملاً لا يعتقد منه أن الرحمة من الصفات الواجبة له دائماً لأن الفعل قد ينقطع إذا كان لم يكن عن صفة لازمة ثابتة وإن كان كثيراً فعند ما يسمع لفظ الرحيم يكمل اعتقاده على الوجه الذي يليق بالله تعالى ويرضيه سبحانه ويعلم أن لله صفة ثابتة هي صفة الرحمة التي عنها يكون أثرها وإن كانت تلك الصفة على غير مثال صفات المخلوقين ويكون ذكرها بعد الرحمن كذكر الدليل بعد المدلول ليقوم برهاناً عليه

﴿ الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم ﴾

تعلمون أن معنى الحمد الثناء باللسان وقيدوه بالجميل لأن كلمة (ثناء) تستعمل في المدح والذم جميعاً يقال أثنى عليه شراً كما يقال أثنى عليه خيراً ويقولون إن (أل) التي في الحمد هي للجنس في أي فرد من أفرادها لا للاستغراق ولا للعهد المخصوص لأنه لا يصار إلى كل منهما في فهم الكلام البدليل وهو غير موجود في الآية

ومعنى كون الحمد لله تعالى بأي نوع من أنواعه هو أن أي شيء يصح الحمد عليه فهو مصدره واليه مرجعه فالحمد له على كل حال

وهذه الجملة خبرية ولكنها استعملت لإنشاء الحمد .
فأما معنى الخبرية فهو إثبات أن الثناء الجميل في أي أنواعه
تحقق فهو ثابت له تعالى وراجع إليه لأنه متصف بكل ما يحمد
عليه الحامدون فصفاته أجمل الصفات واحسانه عمّ جميع
الكائنات ولأن جميع ما يصح أن يتوجه إليه الحمد مما سواه
فهو منه جلّ ثناءه اذ هو مصدر الكون كله فيكون له ذلك
الحمد أولاً وبالذات . والخلاصة أن أيّ حمد يتوجه الى محمود ما
فهو لله تعالى سواء لاحظه الحامد أو لم يلاحظه وأما معنى
الإنشائية فهو أن الحامد جعلها عبارة عما وجهه من الثناء الى
الله تعالى في الحال « رب العالمين » يشعر هذا الوصف ببيان
وجه الثناء المطلق ومعنى الرب السيد المرابي الذي يسوس
مسوده ويربيه ويدبره و (العالمين) جمع عالم جمعه جمع المذكر
الماقل تغليباً وأراد به جميع الكائنات الممكنة أي أنه رب كل
ما يدخل في مفهوم لفظ العالم . وما جمعت العرب لفظ العالم
هذا الجمع الا لتسكتة تلاحظها فيه وهي أن هذا اللفظ لا يطلق
عندهم على كل كائن وموجود كالخبر والتراب وانما يطلقونه
على كل جملة متميزة لأفرادها صفات تقرّبها من الماقل الذي

جُمعت جمعه ان لم تكن منه فيقال عالم الانسان وعالم الحيوان
 وعالم النبات . وأنتم ترون أن هذه الاشياء هي التي يظهر فيها
 معنى التربية الذي يعطيه لفظ رب لأن فيها مبدأها وهو الحياة
 والتغذي والتوالد وهذا ظاهر في النبات لاسيما لمن يقرأ شيئاً
 من علمه كما هو ظاهر في الحيوان . ولقد كان السيد رحمه الله
 تعالى يقول الحيوان شجرة قطعت رجلها من الارض فهي
 تمشي والشجرة حيوان ساخت رجلاه في الارض فهو قائم
 في مكانه يأكل ويشرب وان كان لا ينام ولا يغفل

« الرحمن الرحيم » تقدم معناها وبقي الكلام في اعادتهما
 والنكته فيها ظاهرة وهي أن تربيته للعالمين ليست لحاجة به
 اليهم كجلب منفعة أو دفع مضرة وانما هي لعموم رحمته وشمول
 إحسانه . وثم نكته أخرى وهي أن البعض يفهم من معنى
 الرب الجبروت والقهر فأراد الله تعالى أن يذكرهم برحمته وإحسانه
 ليجمعوا بين اعتقاد الجلال والجمال فذكر الرحمن وهو المفيض
 للنعم بسعة وتجدد لا منتهى لهما والرحيم الثابت له وصف الرحمة
 لا يزاله أبداً فكان الله تعالى أراد أن يتحجب ال عبادته فعرّفهم
 أن ربوبيته لهم ربوبية رحمة واحسان ليعلموا أن هذه الصفة

هي التي ربما يرجع اليها معنى الصفات وليتعلقوا به ويقبلوا على اكتساب مرضاته منسرحة صدورهم مطمئنة قلوبهم ولا ينافي عموم الرحمة وسبقها ما شرعه الله من العقوبات في الدنيا وما أعدّه من العذاب في الآخرة للذين يتعدون الحدود ويتهككون الحرمات فانه وان سُمِّيَ قهراً بالنسبة لصورته ومظهره فهو في حقيقته وغابته من الرحمة لأن فيه تربية للناس وزجراً لهم عن الوقوع فيما يخرج عن حدود الشريعة الآلهية وفي الانحراف عنها شقاؤهم وبلاؤهم وفي الوقوف عندها سمادتهم ونعيمهم والوالد الرؤف يربّي ولده بالترغيب فيما ينفعه والاحسان عليه إذا قام به وربما لجأ الى التهيب والعقوبة اذا اقتضت ذلك الحال والله المثل الأعلى لا إله الا هو واليه يرجعون

﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾

بين الاستاذ أولاً أن في الآية قرائتين وذكر من قرأ (مالك) ومن قرأ مالك والفرق بينهما وقال . قال بعضهم ان قراءة مالك أبلغ لأن هذا اللفظ يفهم منه معنى السلطان والقوة والتدبر وقال آخرون ان القراءة الأخرى أبلغ لان الملك هو الذي يدبر أعمال رعيته العامة ولا تصرف له بشئ من شؤونهم

الخاصة . وانما تظهر هذه التفرقة في عبد مملوك في مملكة لها سلطان ولا ريب ان مالكة هو الذي يتولى جميع شؤونه دون سلطانه . و (الدين) يطلق في اللغة على المكافأة وورد (كما تدان) وقال الشاعر

ولم يبق سوى العدوا ن دنائم كما دانوا
وعلى الجزاء وهو قريب من معنى المكافأة . وعلى الطاعة
وعلى الإخضاع وعلى السياسة يقال (دين فلان فلانا) أي
تولى سياسته وهو قريب من معنى الإخضاع وعلى الشريعة
وما يؤخذ العباد به من التكاليف . والمناسب هنا من هذه
المعاني الجزاء والخضوع

وانما قال « يوم الدين » ولم يقل (الدين) لتعريفنا بأن
للدن يوماً ممتازاً عن سائر الايام وهو اليوم الذي يلتقى فيه كل
عامل عمله ويوفى جزاءه . ولسائل أن يسأل : أليست كل الايام
أيام جزاء وكل ما يلاقه الناس في هذه الحياة من البؤس هو
جزاء على تفریطهم في أداء الحقوق والقيام بالواجبات التي
عليهم . والجواب بلى إن ايماننا التي نحن فيها قد يقع فيها الجزاء
على أعمالنا ولكن ربما لا يظهر لاربابه الا على بعضها دون جميعها .

والجزاء على التفريط في العمل الواجب انما يظهر في الدنيا ظهوراً تاماً بالنسبة لمجموع الأمة لا لكل فرد من الافراد فما من أمة انحرفت عن صراط الله المستقيم ولم تراع سنته في خليقته الا وأحل بها العدل الالهي ما تستحق من الجزاء كالفقر والذل وفقد العزة والسلطة . واما الافراد فاننا نرى كثيراً من المسرفين الظالمين يقضون أعمارهم منغمسين في الشهوات واللذات نعم ان ضمايرهم توبخهم أحيانا وأنهم لا يسلمون من المنغصات وقد يصيبهم النقص في أموالهم وعافية أبدانهم وقوة عقولهم ولكن هذا كله لا يقابل بعض أعمالهم القبيحة لاسيما الملوك والامراء الذين تشقى بأعمالهم السيئة أمة وشعوب كذلك نرى من احسنين في أنفسهم وللناس من يتلى بهضم الحقوق ولا ينال من الجزاء على عمله شيئاً مما يستحقه وان كان قد ينال من الجزاء رضى نفسه وسلامة اخلاقه وصحة ما يكاتبه ولكن ذلك ليس كل ما يستحق . وفي ذلك اليوم يوفى كل فرد من أفراد العالمين جزاءه كاملاً لا ينقصه شئ منه كما قال الله تعالى « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره . ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره »

علمنا الله تعالى انه رحمن رحيم ليجذب قلوبنا اليه
ولكن هل يشعر كل عباده بهذه المنة فينجذبوا اليه الانجذاب
المطلوب؟ كلا أليس فينا من يسلك كل سبيل لا يبالي بمستقيم
ومعوج؟ بلى ولهذا أعقب سبحانه ذكر الرحمة بذكر الدين
فعرّفنا انه يدين العباد ويجازيهم على أعمالهم فكان من رحمته
بعباده أن ربّاهم بنوعي التربية كليهما الترغيب والترهيب كما تشهد
بذلك آيات القرآن الكثيرة « نَبِيٌّ عِبَادِي أَنِي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ .
وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾

ماهي العبادة؟ يقولون هي الطاعة مع غاية الخضوع وما
كل عبارة تمثّل المعنى تمام التمثيل، وتجيّبه للافهام واضعاً لا يقبل
التأويل، فكثيراً ما يفسرون الشيء ببعض لوازمه ويعرّفون
الحقيقة برسومها بل يكتفون أحياناً بالتعريف اللفظي ويبينون
الكلمة بما يقرب من معناها ومن ذلك هذه العبارة التي
شرحوا بها معنى العبادة فإن فيها اجمالاً وتساهاً . وانما اذا
تبعنا آي القرآن وأساليب اللغة واستعمال العرب لعبد وما يماثلها
ويقاربها في المعنى نخضع وخنع وأطاع وذلك نجد أنه لا شيء

من هذه الالفاظ يضاهي (عبد) ويحمل محلها ويقع موقعها
ولذلك قالوا ان لفظ (العباد) مأخوذ من العبادة فتكثر اضافته
الى الله تعالى ولفظ (العبيد) تكثر اضافة الى غير الله تعالى
لانه مأخوذ من العبودية بمعنى الرِّق و فرق بين العبادة
والعبودية بذلك المعنى ومن هنا قال بعض العلماء ان العبادة
لا تكون في اللغة الا لله تعالى ولكن استعمال القرآن يخالفه .
ينغلو العاشق في تعظيم معشوقه والخضوع له غلوًّا كبيراً حتى يفنى
هواه في هواه وتذوب إرادته في إرادته ومع ذلك لا يسمى
خضوعه هذا عبادة بالحقيقة ويبالغ كثير من الناس في تعظيم
الرؤساء والملوك والامراء فترى من خضوعهم لهم وتحريرهم
مرضاتهم ما لا تراه من المتحنتين القانتين فضلا عن سائر
العابدين ولم يكن العرب يسمون شيئاً من هذا الخضوع عبادة
فما هي العبادة إذا؟ تدل الاساليب الصحيحة والاستعمال
العربي الصراح على ان العبادة ضرب من الخضوع بالغ تحد
النهاية ناشئ عن استشعار القلب عظمة للمعبود لا يعرف
منشأها . واعتقاده بسلطة له لا يدرك كنهها وما هيته . وقصارى
ما يعرفه منها أنها محيطه به ولكنها فوق ادراكه . فمن ينهى

الى اقصى الذل لملك من الملوك لا يقال انه عبده وإن قبل مواطىء
 اقدمه مادام سبب الذل والخضوع معروفاً وهو الخوف من
 ظلمه الممهود . أو الرجاء بكرمه المحدود . اللهم الا بالنسبة للذين
 يعتقدون أن الملك قوة غيبية سماوية أفيضت على الملوك من
 الملأ الأعلى واختارتهم للاستعلاء على سائر أهل الدنيا، لأنهم
 أطيب عنصراً، وأكرم جوهرأً، وهؤلاء هم الذين انتهى بهم
 هذا الاعتقاد، الى الكفر والالحاد، فاتخذوا الملوك آلهة وأرباباً
 وعبدوهم عبادة حقيقية . للعبادة صور كثيرة في كل دين من
 الاديان شرعت لتذكير الأتسان بذلك الشعور بالسلطان الالهي
 الاعلى الذى هو روح العبادة وسرّها ولكل عبادة من العبادات
 الصحيحة أثر في تقويم أخلاق القائم بها وتهذيب نفسه والأثر
 إنما يكون عن ذلك الروح والشعور الذى قلنا انه منشأ التعظيم
 والخضوع فاذا وجدت صورة العبادة خالية من هذا المعنى لم تكن
 عبادة كما أن صورة الانسان وتمثاله ليس انساناً ✓

خذ اليك عبادة الصلاة مثلاً وانظر كيف أمر الله
 باقامتها دون مجرد الاتيان بها واقامة الشيء هي الاتيان به مقوماً
 كاملاً يصدر عن علمته وتصدر عنه آثاره . وآثار الصلاة ونتائجها

هي ما أنبأنا الله تعالى بها بقوله « ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » وقوله عز وجل « إن الانسان خلق هَلْوَعا اذا مسه الشركان جزوعا واذا مسه الخير منوعاً الا المصلين » وقد توعد الذين يأتون بصورة الصلاة من الحركات والالفاظ مع السهو عن معنى العبادة وسرّها فيها المؤدي الى غايتها بقوله « فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون الذين هم يراؤون ويمنعون الماعون » فسمّاهم مصلين لانهم أتوا بصورة الصلاة ووصفهم بالسهو عن الصلاة الحقيقية التي هي توجه القلب الى الله تعالى المذكّر بنخشيته والمشعر للقلوب بعظيم سلطانه ثم وصفهم باثر هذا السهو وهو الرياء ومنع الماعون . وذكر الاستاذ ان الرياء ضربان رياء النفاق وهو العمل لاجل رؤية الناس ورياء العادة وهو العمل بحكمها من غير ملاحظة معنى العمل وسره وفائده ولا ملاحظة من يعمل له ويتقرب اليه به وهو ما عليه أكثر الناس فإن صلاة أحدهم في طور الرشد والعقل هي عين ما كان يحاكي به أباه في طور الطفولية عند ما يراه يصلي — يستمر على ذلك بحكم العادة من غير فهم ولا عقل وليس لله شيء في هذه الصلاة . وقد ورد في أحاديث كثيرة أن من لم

ننهة صلواته عن الفحشاء والمنكر لم يزد من الله إلا بعداً وأنها تلفُّ كما يلف الثوب البالي ويضرب بها وجهه . وأما الماعون فهو المعونة والخير الذي تقدم في الآية الاخرى أن من شأن الانسان أن يكون منوعاً له الا المصلين

والاستعانة هي طلب المعونة والمعونة هي سد العجز والمساعدة على اتمام العمل الذي يعجز عنه المستعين بنفسه ثم تكلم الاستاذ على حصر العبادة والاستعانة في الله تعالى الذي دلَّ عليه تقديم المفعول (اياك) على الفعل فقال ما مثاله

أمرنا الله تعالى بان لا نعبد غيره لان السلطة الغيبية التي هي وراء الاسباب ليست الا له دون غيره فلا يشاركه فيها أحد فيعظم تعظيم العبادة وأمرنا بان لا نستعين بغيره أيضاً وهذا يحتاج الى البيان لانه أمرنا أيضاً في آيات أخرى بالتعاون « وتعاونوا على البر والتقوى » فما معنى الاستعانة به مع ذلك ؟ الجواب أن كل عمل يعمله الانسان تتوقف ثمرته ونجاحه على حصول الاسباب التي اقتضت الحكمة الالهية أن تكون مؤديةً اليه وانشاء الموانع التي من شأنها بمقتضى الحكمة أن

تحول دونه وقد مكن الله تعالى الانسان بما أعطاه من العلم والقوة من دفع بعض الموانع وكسب بعض الاسباب وحجب عنه البعض الآخر فيجب علينا أن نقوم بما في استطاعتنا من ذلك ونبذل في إتقان أعمالنا كل ما نستطيع من حول وقوة وأن نتعاون ويساعد بعضنا بعضاً على ذلك ونفوض الأمر فيما وراء كسبنا الى القادر على كل شيء ونلجأ اليه وحده ونطلب المعونة المتممة للعمل والموصلة لثمرته منه سبحانه دون سواه إذ لا يقدر على ما وراء الاسباب الممنوحة لكل البشر على السواء إلا مسبب الاسباب ورب الارباب فقوله تعالى « واياك نستعين » متم لمعنى قوله « اياك نعبد » لان الاستعانة بهذا المعنى فزاع من القلب الى الله وتعلق من النفس به وذلك من منح العباد فاذا توجه العبد بها الى غير الله تعالى كانت ضرباً من ضروب العباد الوثنية التي كانت ذائعة في زمن التنزيل وقبله وخصت بالذكر لئلا يتوهم الجهلاء أن الاستعانة بمن اتخذوهم اولياء من دون الله واستعانو بهم فيما وراء الاسباب المكتسبة لعامة الناس هي كالاستعانة بسائر الناس في الاسباب العامة فأراد الحق جل شأنه ان يرفع هذا

اللبس عن عباده ببيان ان الاستعانة فيما هو في استطاعة الناس
 بالناس انما هي ضرب من استعمال الاسباب المسنونة وما منزلها
 الا كمنزلة استعمال الآلات فيما هي آلات له بخلاف الاستعانة في
 شؤون تفوت القدر والقوى المعروفة في متناول الفهم كالاستعانة
 على شفاء المرض بما وراء الدواء وعلى غلبة العدو بما وراء العدة
 والعدة فان ذلك مما لا يجوز الفزع به لغير الله تعالى صاحب
 السلطان الاعظم على ما لا يصل اليه سلطان احد من العالم
 وضرب الاستاذ مثلاً الزارع يبذل جهده في الحرث
 والعنق وتسميد الارض وريها ويستعين بالله تعالى على اتمام
 ذلك بمنع الآفات والجوائح السماوية او الارضية ومثل بالتاجر
 يحدق في اختيار الاصناف ويمهر في صناعة الترويج ثم يتكل على
 الله فيما بعد ذلك ثم قال ومن هنا تعلمون ان الذين يستعينون
 باصحاب الاضرحة والقبور على قضاء حوائجهم وتيسير امورهم
 وشفاء امراضهم ونماء حرثهم وزرعهم وهلاك اعدائهم وغير
 ذلك من المصالح عن صراط التوحيد ناكبون ، وعن ذكر
 الله معرضون

أرشدتنا هذه الكلمة الوجيزة « واياك نستعين » الى

أميرين عظيمين هما معراج السعادة في الدنيا والآخرة . أحدهما أن نعمل الاعمال النافعة ونجتهد في إتقانها ما استطعنا لأن طلب المعونة لا يكون الا على عمل بذل فيه المرء طاقته فلم يوفيه حقه أو يخشى أن لا ينجح فيه فطلب المعونة على إتمامه وإكمالها ومن وقع من يده القلم على المكتب لا يطلب المعونة من أحد على امساكه ومن وقع تحت عبءٍ ثقيل يعجز عن النهوض به وحده يطلب المعونة من غيره على رفعه بعد استفراغ القوة في الاستقلال به وهذا الامر هو مرعاة السعادة الدنيوية وركن من اركان السعادة الاخروية . وثانيهما ما أفاده الحصر من وجوب تخصيص الاستعانة بالله تعالى وحده فيما وراء ذلك وهو روح الدين ومقال التوحيد الخالص الذي يرفع نفوس معتقديه ويخلصها من رق الاغيار ويفتك إرادتهم من أسر الرؤساء الروحانيين . والشيوخ الدجالين ، ويطلق عنائهم من قيد المهيمنين الكاذبين . من الاحياء والميتين ، فيكون المؤمن مع الناس حراً خالصاً وسيداً كريماً . ومع الله عبداً خاضعاً » ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً »



﴿ إِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾

ذكر الاستاذ أولاً ما قالوه في معنى الهداية لغة من أنها الدلالة بلطف على ما يوصل الى المطلوب ثم بين أنواعها ومصرتبها فقال ما مثاله . منح الله تعالى الانسان أربع هدايات يتوصل بها الى سعادته (اولها) هداية الوجدان الطبيعي والإلهام الفطري وتكون للاطفال منذ ولادتهم فان الطفل بعد ما يولد يشعر بألم الحاجة الى الغذاء فيصرخ طالباً له بفطرته وعند ما يصل الثدي الى فيه يلهم التقامه وامتصاصه (الثانية) هداية الحواس والمشاعر وهي متممة للهداية الاولى في الحياة الحيوانية ويشترك الانسان فيهما الحيوان الاعجم بل هو فيهما أكمل من الانسان فان حواس الحيوان وإلهامه بكملان له بعد ولادته بقليل بخلاف الانسان فان ذلك يكمل فيه بالتدريج في زمن غير قصير الأتراه عقيب الولادة لا تظهر عليه علامات ادراك الاصوات والمرئيات ثم بعد مدة يبصر ولكنه لقصر نظره يجهل تحديد المسافات فيحسب البعيد قريباً فيمديديه اليه ليتناوله وإن كان قمر السماء ولا يزال يغلط حسه حتى في طور الكمال

(الثالثة) هداية العقل . خلق الانسان ليعيش مجتمعاً ولم

يعط من الالهام والوجدان ما يكفي مع الحس الظاهر لهذه الحياة الاجتماعية كما أعطي النحل والنمل فان الله قد منحها من الالهام ما يكفيها لان تمش مجتمعة يؤدي كل واحد منها وظيفة العمل لجميعها ويؤدي الجميع وظيفة العمل للواحد وبذلك قامت حياة أنواعها كما هو مشاهد

أما الانسان فلم يكن من خاصة نوعه أن يتوفر له مثل ذلك الالهام فباه الله هداية هي أعلى من هداية الحس والالهام وهي العقل الذي يصحح غلط الحواس والمشاعر ويبين أسبابه وذلك أن البصر يرى الكبير على البعد صغيراً ويرى العود المستقيم في الماء معوجاً والصفراوي يذوق الحلو مرّاً والعقل هو الذي يحكم يفساد هذا الادراك

(الهداية الرابعة الدين) يغلط العقل في إدراكه كما تغلط الحواس وقد يهمل الانسان استخدام حواسه وعقله فيما فيه سعاده الشخصية والنوعية ويسلك بهذه الهدايات مسالك الضلال فيجعلها مسخرة لشهواته ولذاته حتى تورده موارد الهلكة . فاذا وقعت المشاعر في مزلق الزلل ، واستترقت الحظوظ والاهواء العقل فصار يستنبط لها ضروب الخيل ،

فكيف يتسنى للأُنسان مع ذلك أن يعيش سعيداً؟ وهذه
الخطوظ والأهواء ليس لها حد يقف الإنسان عنده وما هو بعاش
وحده وكثيراً ما تتناول به الى ما في يد غيره فهي لهذا تقضي
أن يعدو بعض أفرادها على بعض فيتنازعون ويتدافعون
ويتجادلون ويتجادون ويتواثبون ويتناهبون حتى يفني بعضهم
بعضاً ولا تغني عنهم تلك الهدايا شيئاً فاحتاجوا الى هداية
ترشدهم في ظلمات أهوائهم اذا غلبت على عقولهم وتبين لهم
حدود أعمالهم ليقفوا عندها ويكفوا أيديهم عما وراءها. ثم إن
مما أودع في غرائز الإنسان الشعورَ بسلطة غيبية تتسلط على
الأكوان ينسب اليها كل ما لا يعرف له سبباً لأنها هي الواهبة
كل موجود ما به قوام وجوده وبأن له حياة وراء هذه الحياة
المحدودة فهل يستطيع أن يصل بتلك الهدايا الثلاث الى
تحديد ما يجب عليه لصاحب تلك السلطة الذي خلقه وسواه
ووهبه هذه الهدايا وغيرها وما فيه سعادته في تلك الحياة
الثانية. كلا إنه في أشد الحاجة الى هذه الهداية الرابعة - الدين -
وقد منحه الله تعالى إياها

أشار القرآن الى أنواع الهداية التي وهبها الله تعالى للإنسان

في آيات كثيرة منها قوله تعالى « وهديناهم للنجدين » أى طريقى السعادة والشقاوة والخير والشر . قال الاستاذ : وهذه تشمل هداية الحواس الظاهرة والباطنة وهداية العقل وهداية الدين . ومنها قوله تعالى « وأما ثمود فهديناهم فاستجبوا لعمى على الهدى » أى دللناهم على طريقى الخير والشر فسلكوا سبيل الشر المعبر عنه بالعمى . وذكر غير هاتين الآيتين مما فى معناها ثم قال

ولكن بقي معنا هداية أخرى وهي المعبر عنها بقوله تعالى « أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده » فليس المراد من هذه الهداية ما سبق ذكره فالهداية فى الآيات السابقة بمعنى الدلالة وهي بمنزلة إيقاف الأنسان على رأس الطريقين المهلك والمنجى مع بيان ما يؤدي اليه كل منهما وهي مما تفضل الله به على جميع أفراد البشر أما هذه الهداية فهي أخص من تلك والمراد بها إعادتهم وتوفيقهم للسير فى طريق الخير والنجاة مع الدلالة وهي لم تكن ممنوحة لكل أحد كالحواس والعقول وشرع الدين ^(١)

(١) هذا الفرق بين معني الهداية معروف فى اللغة وبه يجب عن

ولما كان الإنسان عرضة للخطأ والضلال في فهم الدين
وفي استعمال الحواس والعقل على ما قدمنا كان محتاجاً الى
المعونة الخاصة فأمرنا الله بطلبها منه في قوله « إِهْدِنَا الصِّرَاطَ
الْمُسْتَقِيمَ » فمعنى (اهدنا الصراط المستقيم) دلنا دلالة تصحبها
معونة غيبية من لدنك تحفظنا بها من الضلال والخطأ .
وما كان هذا أوّل دعاء علمنا الله تعالى إياه الا لأن حاجتنا
إليه أشد من حاجتنا الى كل شئ سواه

ثم بين معنى الصراط (وهو الطريق) واشتقاقه وقرآنة
الصراط بالسین المهملة واشتقاقها على نحو ما في كتب اللغة
والتفسير ومعنى المستقيم وهو ضدّ المعوجّ . وقال : ليس المراد
بمقابل المستقيم المعوجّ ذا المتمعج والتعاريج بل المراد كل ما فيه
انحراف عن الغاية التي يجب أن ينهى اليها . والمستقيم في عرف

التناقض الظاهري في قوله تعالى (وانك تهدي الى صراط مستقيم) وقوله
تعالى (انك لاتهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء) وقوله
تعالى (ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء) فالهداية التي
أثبتها للنبي صلى الله عليه وسلم هي الدلالة على الخير والحق والتي نفاها
عنه هي الثانية التي بمعنى الاعانة والتوفيق

الهندسة أقرب . موصل بين طرفين وهذا المعنى لازم للمعنى اللغوي كما هو ظاهر بالبداهة وإنما قلنا إن المراد بمقابل المستقيم كل ما فيه انحراف لأن كل من يميل وينحرف عن الجادة يكون أضل عن الغاية ممن يسير عليها في خطّ ذي تعارج لأن هذا الأخير قد يصل الى الغاية بعد زمن طويل ولكن الأول لا يصل إليها قط بل يزداد بعداً كلما أوغل في السير وانهك فيه

وقد قالوا إن المراد بالصراط المستقيم الدين أو الحق أو العدل والحدود ونحن نقول إنه جملة ما يوصلنا الى سعادتي الدنيا والآخرة من عقائد وآداب وأحكام وتعاليم . لم سُمِّي الموصول الى السعادة من ذلك صراطاً وطريقاً ؟ خذ الحق مثلاً وهو الاعتقاد الصحيح بالله وبالنبوة وبأحوال الكون والناس تر معنى الصراط فيه واضحاً لأن السبيل أو الصراط هو ما أسلكه وأسير فيه لبلوغ الغاية التي أقصدها . كذلك الحق الذي يبين لي الواقع في العقيدة الصحيحة هو كالجادة بين السبل المتفرقة المضلة فالطريق الواضح للحس ، يشبهه الحق للعقل والنفس ، سير حسي . وسير معنوي . كذلك إذا اعتبرت

المعنى فى الحدود والأحكام تجده واضحا - قُتِمَتْ أحكام الأعمال الى واجب ومندوب ومباح ومحرم ومكروه فكان هذا صريحا لنا من تمييز الخير من الشر بأنفسنا واجتهادنا فبيان الأحكام بالهداية الكبرى وهى الدين كالطريق الواضح يسلك بالعمل . ومع هذا تجد الشهوات تتلاعب بالأحكام وترجعها الى أهوائها كما يصرف السفهاء عقولهم وحواسهم فيما يرددهم وهذا التلاعب بالدين إنما يصدر من علمائه . وضرب لذلك مثلا أحد الشيوخ المتفقيين سرق كتابا من وقف أحد الأروقة فى الأزهر مستحلا له بحجة أن قصد الواقف الانتفاع به وهو يحصل بوجود الكتاب عنده وقد يفوت النفع ببقائه فى الرواق حيث وضعه الواقف . واستحلال المحرمات بمثل هذا التأويل ليس بقابل ولذلك كان الانسان محتاجا أشد الاحتياج الى العناية الالهية الخاصة لأجل الاستقامة والسير فى تلك الهدايات الأربع سيرا مستقيما يوصل الى السعادة لهذا نبهنا الله جل شأنه الى أن نلجأ اليه ونسأله الهداية ليكون عوننا لنا ينصرنا على أهوائنا وشهواتنا وأن تكون استعانتنا فى ذلك به لا بسواه بعد ان نذل ما نستطيع من الفكر والجهاد فى معرفة ما أنزل

الينا من الشريعة والأحكام وأخذ أنفسنا بما نعلم من ذلك .
 وهذا أفضل ما نطلب فيه المعونة منه جل شأنه لاشتماله على
 خيري الدنيا والآخرة فهو بهذه الآية يعلمنا كيف نستعين
 بعد أن علمنا اختصاصه بالاستعانة في قوله وإياك نستعين

﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾

(غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ)

الصراط المستقيم هو الموصل الى الحق ولكنه ما بينه
 بذلك كما بينه في نحو سورة العصر (وتلا الاستاذ السورة
 وتكلم عليها كلاماً موجزاً) وإنما بينه بإضافته الى من سلك هذا
 الصراط كما قال « فهداهم اقتده » وقد قلنا إن الفاتحة مشتملة على
 إجمال ما فصل في القرآن حتى من الأخبار التي هي مثل الذكري
 والاعتبار ، وينبوع العظة والاستبصار ، وأخبار القرآن كلها
 تنطوي في إجمال هذه الآية

فسر بعضهم المنعم عليهم بالمسلمين والمغضوب عليهم باليهود
 والضالين بالنصارى . ونحن نقول إن الفاتحة أول سورة نزلت
 كما قال الأمام علي رضي الله عنه وهو أعلم بهذا من غيره لأنه
 تربى في حجر النبي صلى الله عليه وسلم وأول من آمن به وإن لم

تكن أول سورة على الأطلاق فلا خلاف في أنها من أوائل
السور (كما مرَّ في المقدمة) ولم يكن المسلمون في أول نزول
الوحي بحيث يطلب الاهتداء بهداهم وماهداهم الآ من
الوحي ثم هم المأمورون بأن يسألوا الله أن يهديهم هذا السبيل
سبيل من أنعم الله عليهم فأولئك غيرهم وإنما المراد بهذا ما جاء
في قوله تعالى « فهداهم اقتده » وهم الذين أنعم الله عليهم من
النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين من الأمم السالفة .
فقد أحال على معلوم أجمله في الفاتحة وفصله في سائر القرآن
بقدر الحاجة فثلاثة أرباع القرآن تقريباً قصص وتوجيه للأنظار
الى الاعتبار بأحوال الأمم في كفرهم وإيمانهم وشقاوتهم وسعادتهم
ولا شيء يهدي الأنسان كالمثلات والوقائع فاذا امثلنا الامر
والارشاد ونظرنا في أحوال الأمم السالفة وأسباب علمهم
وجهلهم وقوتهم وضعفهم وعزهم وذلمهم وغير ذلك مما يعرض
للأمم كان لهذا النظر أثر في نفوسنا يحملنا على حسن الاسوة
والاقتداء بأخير تلك الأمم فيما كان سبب السعادة والتمكن
في الارض واجتناب ما كان سبب الشقاوة أو الهلاك والدمار .
ومن هنا ينبغي للماقل شأن علم التاريخ وما فيه من الفوائد

والثمرات وتأخذها الدهشة والحيرة اذا سمع أن كثيراً
 من رجال الدين من أمة هذا كتابها يعادون التاريخ باسم الدين
 ويرغبون عنه ويقولون إنه لا حاجة اليه ولا فائدة له . وكيف
 لا يدهش ويحار والقرآن ينادي بأن معرفة أحوال الأمم من
 أهم ما يدعو اليه هذا الدين « وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ
 الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَاتُ »

وهنا سؤال وهو كيف يأمرنا الله تعالى باتباع صراط من
 تقدمنا وعندنا أحكام وارشادات لم تكن عندهم وبذلك كانت
 شريعتنا أكمل من شرائعهم وأصلح لزماننا وما بعده؟ والقرآن يبين
 لنا الجواب وهو أنه يصرح بأن دين الله في جميع الأمم واحد وإنما
 تختلف الأحكام بالفروع التي تختلف باختلاف الزمان وأما الأصول
 فلا خلاف فيها . قال تعالى « قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى
 كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ » الآية وقال تعالى « إِنَّا أَوْحَيْنَا
 إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ » الآية . فالاعتقاد
 بالله وبالنبوة وبترك الشر وبعمل البر والتخلق بالاخلاق الفاضلة
 مستوي في الجميع وقد أمرنا الله بالنظر فيما كانوا عليه والاعتبار
 بما صاروا اليه فنتدي بهم في القيام على أصول الخير وهو أمر

يتضمن الدليل على أن في ذلك الخير والسعادة على حسب
طريقة القرآن في قرن الدليل بالمدلول والعلة بالمعلول والجمع بين
السبب والمسبب . وتفصيل الاحكام التي هذه كليتها بالاء جمال
نعرفه من شرعنا ونبينا عليه الصلاة والسلام

وأما قوله تعالى « غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ » فالْمَغْضُوبِ

عليهم هم الذين خرجوا عن الحق بعد علمهم به والذين بلغهم
شرع الله تعالى ودينه فرفضوه ولم يتقبلوه انصرفا عن الدليل ،
ورضى بما ورثوه من القيل ، ووقوفاً عند التقليد ، وعكوفاً على
هوى غير رشيد ، وغضب الله عقوبته وانتقامه . وقوله

« وَلَا الضَّالِّينَ » قرن المعطوف فيه بلا لما في (غير) من معنى
النفي أي وغير الضالين ففيه تأكيد للنفي . وهو يدل على أن

الطوائف ثلاث المنعم عليهم والمغضوب عليهم والضالون ولا
شك أن المغضوب عليهم ضالون أيضاً لانهم بنذم الحق وراء

ظهورهم قد استدبروا العناية واستقبلوا غير وجهها فلا يصلون
الى مطلوب ، ولا يهتدون الى مرغوب ، ولكن فرقا

بين من عرف الحق فاعرض عنه على علم وبين من لم يظهر
له الحق فهو تائه بين الطرق لا يهتدي الى الجادة فيها وهم من لم

تبلغهم الرسالة أو بلغتهم على وجه لم يتبين لهم فيه الحق فهؤلاء هم أحق باسم الضالين فإن الضال حقيقة هو التائه الواقع في عمية لا يهتدي معها الى المطلوب والعمية في الدين هي الشبهات التي تلبس الحق بالباطل وتشبه الصواب بالخطأ

والضالون على أقسام (الاول) من لم تبلغهم الدعوة الى الرسالة أو بلغتهم على وجه لا يسوق الى النظر فهؤلاء لم يتوفر لهم من أنواع الهداية سوى ما يحصل بالحس والعقل وحرموا رشد الدين فان لم يضلوا في شؤونهم الدنيوية ضلوا لاحالة فيما تطالب به نجات الارواح وسعادتها في الحياة الاخرى على أن من شأن الدين الصحيح أن يفيض على أهله من روح الحياة مابه يسمدون في الدنيا والآخرة معاً فمن حرم الدين حرم السعادتين وظهر أثر التخبط والاضطراب في أعماله المعاشية وحل به من الرزايا ما يتبع الضلال والخبط عادة سنة الله في هذا العالم ولن تجد لسنة تبديلاً . أما أمرهم في الآخرة فعلى أنهم لن يساووا المهتدين في منازلهم وقد يعفو الله عنهم وهو الفعال لما يريد

(القسم الثاني) من بلغته الدعوة على وجه يبعث على النظر

فساق همته اليه واستفرغ جهده فيه ولكن لم يوفق الى

الاعتقاد بما دعي اليه وانقضى عمره وهو في الطلب وهذا القسم
 لا يكون الا أفراداً متفرقة في الأمم ولا يعم حاله شعباً من
 الشعوب فلا يظهر له أثر في أحوالها العامة وما يكون لها من
 سعادة وشقاء في حياتهم الدنيا أما صاحب هذه الحالة فقد ذهب
 بعض الاشاعرة الى أنه ممن ترجى له رحمة الله تعالى وينقل
 صاحب هذا الرأي مثله عن أبي الحسن الأشعري وعلى رأي
 الجمهور فلا ريب أن مؤاخذته أخف من مؤاخذة الجاحد الذي
 استعصى على الدليل وكفر بنعمة العقل ورضي بحظه من الجهل
 (القسم الثالث) من بلغتهم الرسالة وصدقوا بها بدون
 نظر في أدلتها ولا وقوف على أصولها فاتبعوا أهواءهم في فهم
 ما جاءت به في أصول العقائد وهؤلاء هم المبتدعة في كل دين
 ومنهم المبتدعون في دين الاسلام وهم المنحرفون في اعتقادهم
 عما تدل عليه جملة القرآن وما كان عليه السلف الصالح وأهل
 الصدر الاول ففرقوا الامية الى مشارب ينص بمآثرها الوارد
 ولا يرتوي منها الشارب وإني أشير الى طرف من آثارهم في
 الناس . يأتي الرجل الى دوائر القضاء فيسنحلف بالله العلي
 العظيم أو بالمصحف الكريم وهو كلام الله القديم أنه ما فعل

كذا فيحلف وعلامة الكذب بادية على وجهه فيأتيه المستحلف من طريق آخر ويحمله على الحلف بشيخ من المشايخ الذين يعتقد بهم فيتغير لونه وتضطرب أركانه ثم يرجع في اليته ويقول الحق ويقر بأنه فعل ما حلف عليه أولاً أنه لم يفعله تكريماً لاسم ذلك الشيخ وخوفاً منه أن يسلب عنه نعمة أو يحل به نعمة إذا حلف باسمه كاذباً (ثم ذكر الاستاذ وقائع كثيرة من ذلك) فهذا ضلال في أصول العقيدة يرجع الى الضلال في الاعتقاد بالله وما يجب له من الوجدانية في الافعال ولو أردنا أن نسرد ما وقع فيه المسلمون من الضلال في العقائد الاصلية بسبب البدع التي عرضت على دين الاسلام لطال المقال واحتيج الى وضع مجلدات في وجوه الضلال

ومن أشنعها أثراً وأشدّها ضرراً خوض رؤساء الفرق منهم في مسائل القضاء والقدر والاختيار والجبر وتحقيق الوعد والوعيد وتهوين مخالفة الله على نفوس العبيد

إذا وزنا ما في أدمغتنا من الاعتقادات بكتاب الله تعالى من غير أن ندخلها فيه أو لا يظهر اننا كوننا مهتدين أو ضالين .
وأما اذا أدخلنا ما في أدمغتنا في القرآن وحشرنا ما فيه أو لا

فلا يمكننا أن نعرف الهداية من الضلال لاختلاط الموزون بالميزان فلا يدري ما هو الموزون من الموزون به . أريد أنه يجب أن يكون القرآن أصلاً تحمل عليه المذاهب والآراء في الدين لا أن تكون المذاهب أصلاً والقرآن هو الذي يحمل عليها ويرجع بالتأويل أو التحريف إليها . كما جرى عليه المخدولون وتاه فيه الضالون

(القسم الرابع) ضلال في الاعمال وتحريف للاحكام عما وضمت له كالخطأ في فهم معنى الصلاة والصيام وجميع العبادات والخطأ في فهم الاحكام التي جاءت في المعاملات ولنضرب لذلك مثلا الاحتيال في الزكاة بتحويل المال الى ملك الغير قبل حلول الحول ثم استراداده بعد مضي قليل من الحول الثاني حتى لا تجب الزكاة فيه وظنّ المحتال أنه بحيلته قد خلص من أداء الفريضة ونجا من غضب من لا تخفى عليه خافية ولا يعلم أنه بذلك قد هدم ركنا من أهم أركان دينه وجاء بعمل من يعتقد أن الله قد فرض فرضاً وشرع بجانب ذلك الفرض ما يذهب به ويمحو أثره وهو محال عايه جل شأنه — ثلاثة أقسام من هذا الضلال اولها وثالثها ورابعها يظهر أثرها في الامم فتختلّ

قوى الادراك فيها وتفسد الأخلاق وتضطرب الاعمال ويحل بها الشقاء عقوبة من الله لا بد من نزولها بهم سنة الله في خلقه ولن تجد لسنة تحويلاً . ويمدّ حلول الضعف ونزول البلاء بامة من الامم من العلامات والدلائل على غضب الله تعالى عليها لما أحدثته في عقائدها واعمالها مما يخالف سننه ولا يتبع فيه سننه . لهذا علمنا الله تعالى كيف ندعوه بان يهديننا طريق الذين ظهرت نعمته عليهم بالوقوف عند حدوده وتقوم العقول والاعمال بفهم ما هداانا اليه وأن يجنبنا طرق اولئك الذين ظهرت فيهم آثار نقمه بالانحراف عن شرائعه سواء كان ذلك عمداً وعناداً أو غواية وضلالاً

واعلموا أن الامة اذا ضلّت سبيل الحق ولعب الباطل باهوائها ففسدت أخلاقها واعتلت اعمالها وقعت في الشقاء لا محالة ووسط الله عليهم من يستند لها ويستأثر بشؤونها ولا يؤثر لها العذاب الى يوم الحساب وان كانت ستلاقي نصيبها منه أيضاً فاذا تمادى بها النغي وصل بها الى الهلاك ومحي أثرها من الوجود لهذا علمنا الله تعالى كيف ننظر في أحوال من سبقنا ومن بقيت آثارهم بين أيدينا من الامم لنعتبر ونميز بين ما به تسعد الاقوام

وما به تشقى . أما في الافراد فلم تجر سنة الله بلزوم العقوبة لكل ضال في هذه الحياة الدنيا فقد يستدرج الضال من حيث لا يعلم ويدركه الموت قبل أن تزول النعمة عنه وانما يلقي جزاءه « يوم لا تملكُ نفسٌ لنفسٍ شيئاً والامرُ يومئذٍ لله »

المقالة الأولى

﴿ في أفعال العباد ونسبها تارة اليهم وتارة الى الله تعالى ﴾
 نشرنا هذه المقالة في الجزء السابع من المجلد الثالث من مجلة المنار (ص ١٥٧) تحت عنوان «سؤال وجواب عن آيتين من الكتاب»
 رفع سؤال الى مولانا حجة الاسلام وقدوة الأنام الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية يطلب صاحبه فيه بيان الجمع بين قوله تعالى « وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَّا لِهَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا » وقوله تعالى عقيبها « مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا » فإن بينهما في

بادي الرأي نافعاً ينزهه عنه كلام الله تعالى فأجاب حفظه الله تعالى بقوله

كان بعض القوم بطراً جاهلاً إذا أصابه خير ونعمة يقول إن الله تعالى قد أكرمه بما أعطاه من ذلك وأصدره من لذه وساقه إليه من خزائن فضله عناية منه به لعل منزلته وإذا وصل إليه شر وهو المراد من السيئة يزعم أن منبع هذا الشر هو النبي صلى الله عليه وسلم وأن شؤم وجوده هو ينبوع هذه السيئات والشرور . فهؤلاء الجاهلون الذين كانوا يرون الخير والشر والحسنة والسيئة يتناوبانهم قبل ظهور النبي وبعده كانوا يفرقون بينهما في السبب الاول لكل منهما فينسبون الخير أو الحسنة الى الله تعالى على أنه مصدرها الاول ومعطيها الحقيقي يشيرون بذلك الى أنه لا يد للنبي فيه وينسبون الشر أو السيئة الى النبي على أنه مصدرها الأول ومنبعها الحقيقي كذلك وأن شؤمه هو الذي رماه بها وهذا هو معنى « من عند الله » أو « من عندك » أي من لذه ومن خزائن عطائه ومن لذك ومن رزايك التي ترحي بها الناس . فرد الله عليهم هذه المزاعم بقوله قائلهم: « عند الله » أي أن السبب الاول وواضع أسباب

الخير والشر المنعم بالنعم والرامي بالنقم انما هو الله وحده وليس لغيره
 ولا المشؤم مدخل في ذلك فهو بيان للفاعل الاول الذي يرد اليه
 الفعل فيما لا تناوله قدرة البشر ولا يقع عليه كسبهم وهو الذي
 كان يعنيه اولئك المشاقون عند ما يقولون الحسنه من الله والسيئه
 من محمد أي انه لا دخل لاختيارهم في الاولى ولا في الثانية وأن
 الاولى من عناية الله بهم والثانية من شؤم محمد عليهم فجاءت الآيه
 ترميهم بالجهل فيما زعموا ولو عقلوا لعلموا ان ليس لاحد فيما
 وراء الاسباب المعروفة نعل الخير والشر في ذلك سواء
 هذا فيما يتعلق بمن بيده الامر الاعلى في الخير والشر
 والنعم والنقم أما ما يتعلق بسنة الله في طريق كسب الخير والتوقي
 من الشر والتمسك بأسباب ذلك فالأمر على خلاف ما يزعمون
 كذلك فان الله سبحانه وتعالى قد وهبنا من العقل والقوى
 ما يكفينا في توفير أسباب سعادتنا والبعد عن مساقط الشقاء
 فاذا نحن استعملنا تلك المواهب فيما وهبت لاجله وصر فناحو اسنا
 وعقولنا في الوجوه التي ننال منها الخير وذلك انما يكون
 بتصحيح الفكر وإخضاع جميع قوانا لاحكامه وفهم شرائع الله
 حق الفهم والتزام ما حدده فيها فلا ريب في أننا ننال الخير والسعادة

ونبعد عن الشقاء والتعاسة وهذه النعم إنما يكون مصدرها تلك
 الملوأهب الآلهية فهي من الله تعالى فما أصابك من حسنة فمن الله
 لان قواك التي كسبت بها الخير واستغزرت بها الحسنات بل
 واستعمالك لتلك القوى إنما هو من الله لانك لم تأت بشيء سوى
 استعمال ما وهب الله فاتصال الحسنة بالله ظاهر ولا يفصلها عنه
 فاصل لا ظاهر ولا باطن . وأما اذا أسأنا التصرف في أعمالنا
 وفرطنا في النظر في شؤوننا وأهملنا العقل وانصرفنا عن سر ما
 أودع الله في شرائعه وغفلنا عن فهمه فاتبعنا الهوى في أفعالنا
 وجلبنا بذلك الشر على أنفسنا كان ما أصابنا من ذلك صادرا عن سوء
 اختيارنا وإن كان الله تعالى هو الذي يسوقه الينا جزاء على ما فرطنا
 ولا يجوز لنا أن ننسب ذلك الى شؤم أحد أو تصرفه . ونسبة
 الشر والسيئات اليها في هذه الحالة ظاهرة الصحة فاما الملوأهب
 الآلهية بطبيعتها فهي متصلة بالخير والحسنات وانما يمتلأ أثرها
 إهمالها أو سوء استعمالها وعن كلا الأمرين يساق الشر الى أهله
 وهما من كسب المهملين وسيء الاستعمال فحق ان ينسب اليهم
 ما أصيبوا به وهم الكاسبون لسببه فقد حالوا بكسبهم بين القوى
 التي غرزها الله فيهم لتؤدي الى الخير والسعادة وبين ما حقرها

أن تؤدى إليه من ذلك وابدوا بها عن حكمة الله فيها وصاروا بها الى ضد ما خلقت لاجله فكل ما يحدث بسبب هذا الكسب الجديد فأجدر به الا ينسب الى كاسبه

وحاصل الكلام فى المقامين أنه اذا نظر الى السبب الاول الذى يعطي ويمنع ويمنع ويسلب وينعم وينتقم فذلك هو الله وحده ولا يجوز أن يقال إن سواه يقدر على ذلك ومن زعم غير هذا فهو لا يكاد يفقه كلاماً لأن نسبة الخير الى الله ونسبة الشر الى شخص من الاشخاص بهذا المعنى مما لا يكاد يعقل فان الذى يأتي بالخير ويقدر على سوقه هو الذى يأتي بالشر ويقدر عليه فالنفريق ضرب من الخبل فى العقل

واذا نظرنا الى الأسباب المسنونة التي دعا الله الخلق الى استعمالها ليكونوا سعداء ولا يكونوا أشقياء فمن أصابته نعمة بحسن استعماله لما وهب الله فذلك من فضل الله لانه أحسن استعماله الآلات التي من الله عليه بها فعليه أن يحمد الله ويشكره على ما آتاه ومن فرط أو أفرط في استعمال شيء من ذلك فلا يلوم إلا نفسه فهو الذي أساء ائها بسوء استعماله مالم يه من المواهب وليس بسائر له أن ينسب شيئاً من ذلك

الى النبي ولا الى غيره فان النبي أو سواه لم يغبه على اختياره ولم يقهره على اتيان ما كان سبباً في الانتقام منه

فلو عقل هؤلاء القوم لحمدوا الله وحمدوك (يا محمد) على ما ينالون من خير فان الله هو مانحهم ما وصلوا به الى الخير وأنت داعيهم لالتزام شرائع الله وفي التزامها سعادتهم ثم إذا أصابهم شر كان عليهم أن يرجعوا باللائمة على أنفسهم لتقصيرهم في أعمالهم أو خروجهم عن حدود الله فعند ذلك يعلمون أن الله قد انتقم منهم للتقصير أو العصيان فيؤدبون أنفسهم ليخرجوا من نعمته الى نعمته لأن الكل من عنده وإنما ينعم على من أحسن الاختيار ويسلب نعمته عن أساءه

وقد تضافرت الآثار على أن طاعة الله من أسباب النعم وأن عصيانه من مجالب النعم وطاعة الله إنما تكون باتباع سننه وصراف ما وهب من الوسائل فيما وهب لأجله

ولهذا النوع من التعبير نظائر في عرف التخاطب فانك لو كنت فقيراً وأعطاك والدك مثلاً رأس مال فاشتغلت بتتميته والاستفادة منه مع حسن في التصرف وقصد في الإنفاق وصرت بذلك غنياً فانه يحق لك أن تقول ان غناك

انما كان من ذلك الذي أعطاك رأس المال وأعدك به للغنى .
 أما لو أسأت التصرف فيه وأخذت تنفق منه فيما لا يرضاه
 واطلع على ذلك منك فاسترد ما بقي منه وحرمتك نعمة التمتع
 به فلا ريب أن يقال ان سبب ذلك انما هو نفسك وسوء
 اختيارها مع أن المعطي والمسترد في الحالين واحد وهو والدك
 غير أن الامر ينسب الى مصدره الأول اذا انتهى على حسب
 ما يريد وينسب الى السبب القريب اذا جاء على غير ما يجب لأن
 تحويل الوسائل عن الطريق التي كان ينبغي أن تجري فيها الى
 مقاصدها انما ينسب الى من حولها وعدل بها عما كان يجب
 أن تسير اليه

وهناك للآية معنى أدق . يشعر به ذو وجدان أرق . مما
 يجده الغافلون من سائر الخلق . وهو أن ما وجدت من فرح
 ومسرة وما تمتعت به من لذة حسية أو عقلية فهو الخير الذي
 ساقه الله اليك واختاره لك وما خلقت الا لتكون سعيداً بما
 وهبك . أما ما تجده من حزن وكدر فهو من نفسك . ولو
 نفذت بصيرتك الى سر الحكمة فيما سيق اليك لفرحت
 بالمحزن فرحك بالسار وانما أنت تقصر نظرك تحب أن تختار

ما لم يحتره لك العليم بك المدبر لشأنك ولو نظرت الى العالم
 نظرة من يعرفه حق المعرفة وأخذته كما هو وعلى ما هو عليه
 لكات المصائب لديك بمنزلة التوابل الحريفة^(١) يضيفها
 طاهيك^(٢) على ما يهيء لك من طعام لتزيده حسن طعم وتشجذ
 منك الاشتهاء لاستيفاء اللذة واستحسنت بذلك كل ما اختاره
 الله لك ولا يمنعك ذلك من التزام حدوده والتعرض لنعمه
 والتحوّل عن مصاب نغمه فان اللذة التي تجدها في النعمة انما
 هي لذة التأديب . ومتاع التعليم والتهديب . وهو متاع تجتنى
 فائدته . ولا تلتزم طريقته . فكما يسر طالب الآداب أن
 يتحمل المشقة في تحصيله وأن يلند بما يلاقه من تعب فيه يسره
 كذلك أن يرتقي فوق ذلك المقام الى مستوى يجد نفسه فيه
 متمتعاً بما حصل . بالغاً ما أمّل . وفي هذا كفاية لمن يريد
 أن يكنهي اه

(١) هي ما يطيب به الطعام كالفاصل واحدها تابل

(٢) الطاهي الطباخ

المقالة الثانية

مسئلة الغرائق . وتفسير الآيات

(نشرت في العدد الثالث من مجلة المنار للسنة الرابعة)

تمهيد . مصارعة الحق والباطل . رفع الاسلام مقام الانبياء وحكمه
بعصمتهم . عيث عشاق الروايات وفسادهم في الدين . الروايات
واختلافها في مسئلة الغرائق . مخالفة المحققين لها . الرجوع الى اهل
العلم الصحيح في ازالة الحيرة . الطعن في رواية تفسير التمني بالقراءة .
الطعن في حديث الغرائق رواية . الطعن فيه دراية . عصمة الانبياء .
الوجوه الدالة على بطلان حديث الغرائق . تفسير الآيات على الوجه
الموافق لأسلوب القرآن المنطبق على العقائد الصحيحة . السابق
وسابق الآيات . التفسير الاول وفيه المقابلة بين الآيات وآيات سورة
آل عمران في المحكمات والمتشابهات . التفسير الثاني . امانى الانبياء .
سنة الله فيهم وفي اقوامهم . تأويل ثالث . وسواس الشيطان . اللغات
في الفرونق ومعانيه . عدم . الائمة معانيه لوصف الآلهة . انتفاء نقل
ذلك عن العرب . الجزم بان الحديث من وضع الاعاجم .

حديث الغرائق صار مشهوراً عند المتأخرين لوجوده

في كثير من كتب التفسير التي تناولها الايدي ولو صح لكان

أ كبر شبهة على الدين ولكن المقلد البحت الذي لا نظر له لا يبالي بالشبه ويقبل كل نقل ، وان كان الفرع فيه ينفي الاصل ، وطلاب العنت يتشبثون بأهداب الشبه فيجعلونها معاول تهديم الاركان الثابتة ، وتنفي القضايا المبرهنة . ولذلك كثر الطعن في هذه الايام ، بدين الأ سلام ، من دعاة النصرانية ، وبعض المفتونين بالشبه المادية ، واقوى توكأة لهؤلاء الطاعنين ماقاله بعض المفسرين في مسألة زيد وزينب وفي مسألة الغرائق . ومسئلة أخرى . ولما كان كشف الشبهات وتخليص الحق من شوائب الباطل على وجه تثق به النفوس ، وتطمئن اليه القلوب ، من وظائف أئمة الدين ، وأكابر العلماء الراسخين ، لجأ قوم الى حكيم الاسلام في هذا العصر ، وامام المسلمين في كل بادية ومصر ، مولانا الاستاذ الأ كبر الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية ، في أن يجلي لهم الحق في المسئلة الاولى فاجاب ، بما هو الحكمة وفصل الخطاب ، ونشرناه في المنار ، ليشتهر في الاقطار ، ثم سأله آخرون في هذه الايام عن الثانيه . فاجاب بما أزال الالتباس ، ومحص ما في صدور الناس ، جعل المسئلة أولاً موضوع درس في الازهر حضره الجماهير والجم الغفير ثم

كتبها لتشر في المنار ، وتناقل في الامصار ، وهاك ماحاء
من فضيلته ، بنصه وعبارته :

« وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي الا اذا تمنى
القي الشيطان في امنيته فينسخُ اللهُ ما يلقى الشيطان ثم يحكم
الله آياته والله عليمٌ حكيم . ليجعل ما يلقى الشيطان فتنه للذين
في قلوبهم مرضٌ والقاسية قلوبهم وإن الظالمين لفي شقاق
بعيد . وليعلم الذين أتوا الملم أنه الحق من ربك فيؤمنوا
به فتخبت له قلوبهم وإن الله لهادي الذين آمنوا الى صراطٍ
مستقيم . ولا يزال الذين كفروا في مرية منه حتى تأتيهم
الساعة بغتةً أويأتيهم عذاب يوم عقيم »

قد يجد الباطل انصاراً . فيتبوا من نفوسهم داراً . ويتخذ
له منها قراراً . وتذهب على ذلك الايام بعد الايام . وتمضي
عليه الاعوام إثر الاعوام . وهو يلعب بأهله . ويلعب أهواءهم
بجيلة . حتى يقصروا نظرهم عليه . ولا يجدوا ملجأً منه الا
اليه . فاذا أتوا من ناحيته رضوا . واذا عرض لهم الحق
أعرضوا . ولا يزالون كذلك الا أن تنحل به عراهم . وتفسد

دعائه قواهم . والحق لا يزال يعرض نفسه . يستخدم مرة
لينه وأخرى بأسه . وهو الشاب الذي لا يهرم . والعامل الصبور
الذي لا يسأم . وإنما يُعْرَضُ بوجهه عن الاغبياء . ويُولِّي ظهره
الاشقياء . ثم لا ينفك يرحمهم . ولا يبرح يتعهدهم . يسفر
عليهم محياه . ويرسل اليهم اشعة من سناه . فاذا وافاهم وقد
وهنت منتهم^(١) . ومرهت عيونهم^(٢) . وحلك ليلهم . واشتد
خبلهم . صاح بهم منه صالح . ورحمهم من جنده راح^(٣) .
فقلق بالباطل مكانه . وزلزلات من حوله أركانه . وفزع يطلب
النصير . وثار يلتمس الحجير . فلا يجد الا أسباباً تقطعت به .
وأعضاءاً فُتَّ فيها بسببه .^(٤) وقد رنق قومه^(٥) . وعبس يومه
فيحملك الى الحق يأخذه ببصره . ويستنزله بنظره . ولكن
خاب الظن . وبطل الفن . ثم لا يلبث وهو الباطل ان يتحول

(١) المن جمع منة بالضم وهي القوة (٢) مرهت العين خلت من

الكحل أو فسدت لتركه (٣) ربحه طعنه بالربح . والراح ذوالربح (٤)
الفت الدق والكسر بالاصابع ويقولون « فت في عضده » اذا كسر قوته
وفرق عنه أنصاره (٥) رنق القوم بالمكان (بتشديد النون) أقاموا وفي
الامر خلطوا الرأي والطار خفق بجناحه ورفرف ولم يعطر

عنده اليأس املاً . ويجد من اليبس بللاً . فيظن وهو هو
ان الحق ناصره . وان ستقوى به أواصره . فيستنصر بمجنده .
ويطلب النجدة من عنده . واقرب ما يكون خصم الى الهلكة
اذا اطمان الى عدوه . وأمل الخير في دنوه . هذا شأن الباطل
وأهله . مع تقلبه في ملله ونحله .

يعلم كل ناظر في كتابنا الالهي (القرآن) مارفع الاسلام
من شأن الانبياء والمرسلين . والمنزلة التي أحلهم من حيث هم
حملة الوحي وقدوة البشر في الفضائل وصالح الاعمال وتزيهه
اياهم عمار ما هم به اعداؤهم وما نسبه اليهم المعتقدون بأديانهم . ولا
يخفى على أحد من أهل النظر في هذا الدين القويم انه قد قرر
عصمة الرسل كافة من الزلل في التبليغ والزيغ عن النوجهة التي
وجه الله وجوههم نحوها من قول أو عمل وخص خاتمهم محمداً
صلى الله عليه وسلم فوق ذلك بمزايا فصلت في ثنايا الكتاب العزيز
عصمة الرسل في التبليغ عن الله اصل من أصول الاسلام
شهد به الكتاب وأيدته السنة وأجمعت عليه الامة . وما خالف
فيه بعض الفرق فانما هو نى غير الاخبار عن الله وابلاغ وحيه
الى خلقه . ذلك الاصل الذي اعتمدت عليه الاديان حتى لا يرتاب

فيه ملي يفهم مامعنى الدين

مع ذلك لم يعدم الباطل فيه أعواناً يعملون على هدمه
وتوهين ركنه أولئك عشاق الروايات وعبدة النقل . نظروا
نظرة في قوله تعالى : « وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي » -
- الآية وفيما روي عن ابن عباس (رضي الله عنهما) من أن
تمنى بمعنى قرأ والامنية القراءة فعمي عليهم وجه التأويل الحق
على فرض صحة الرواية عن ابن عباس فذهبوا يطلبون مابه يصح
التأويل في زعمهم فقيض لهم من يروي في ذلك احاديث
تختلف طرقها وتباين الفاظها وتتفق في أن النبي صلى الله
عليه وسلم عند ما بلغ منه أذى المشركين ما بلغ وأعرضوا عنه
وجفاه قومه وعشيرته لمبيه اصنامهم وزرايته على آلهتهم أخذه
الضجر من إعراضهم ولحرصه على اسلامهم وتهالكه عليه تمنى
ان لا ينزل عليه ما ينفرهم لعله يتخذ ذلك طريقاً الى استمالتهم
واستزالهم عن غيرهم وعنادهم فاستمر به ما تمناه حتى نزلت عليه
سورة « والنجم اذا هوى » وهو في نادي قومه وروي انه كان
في الصلاة وذلك التمنى أخذ بنفسه فطفق يقرأها فلما بلغ قوله :
ومن آة الثالثة الاخرى « ألق الشيطان في أمنته » التي تمنها ابان

وسوس له بما شيعمها به فسبق لسانه على سبيل السهو والغلط
فمدح تلك الاصنام وذكر ان شفاعتهن ترتجي . فمنهم من قال
انه عند ما بلغ « ومناة الثالثة الاخرى » سها فقال : تلك الغرائيق
العلي . وان شفاعتهن لترتجي . ومنهم من روى (الغرائقة العلي)
ومنهم من روى (ان شفاعتهن ترتجي) بدون ذكر الغرائقة
والغرائيق . ومنهم من قال انه قال (وانها لمع الغرائيق العلي)
ومنهم من روى (وانهن لهن الغرائيق العلي . وان شفاعتهن
لهي التي ترتجي) ففرح المشركون بذلك وعند ما سجد في آخر
السورة سجدوا معه جميعاً

قال ابن حجر العسقلاني : وتعدد الطرق وصحة ثلاثة
منها وان كانت مرسلة يدل على ان للواقعة أصلاً صحيحاً .
وهذه الاسانيد الصحيحة — في رأيه — وان كانت مراسيل
يحتج بها من يرى الاحتجاج بالحديث المرسل بل ومن لا يراه
كذلك لانها متعددة يعضد بعضها بعضاً اهـ ولولا خوف
التطويل لآتيت بجميع تلك الروايات ماصح عنده منها وما لم
يصح ولا سكن لا أرى حاجة اليه في مقالي هذا
روى ذلك ابن جرير الطبري وشايعه عليه كثير من

المفسرين . وفي طباع الناس ألف الغريب . والتهافت على
العجيب . فولعوا بهذه التفاسير واتخذوها عقدة إيمانهم حتى
ظنوا — وبعض الظن اثم — ان لا معدل عنها . ولا سبيل في
فهم الآية الى سواها . ونسوا ما رآه جمهور المحققين في تأويلها
وذهب اليه الأئمة في بيانها . حتى نارت نائرة الشبه هذه الايام
في نفوس كثير منهم وهم يزعمون انهم مسلمون واحسوا ان
ذلك الضرب من التفسير لا يتفق مع أصل العصمة في التبليغ
وان فيه من الحججة للعدو مالا سبيل الى دفعه فلجأوا الى أهل
العلم الصحيح يلتمسون منهم بيان المخرج مما سقطوا فيه .
وتوهموا انهم يقررون لهم ما ألفوا . ثم ينقدونهم من الحيرة
مع ثباتهم على ما حرفوا . ولا يكن ضل رأيهم . وخاب ظنهم .
وسيقامون على المنهج . ويرون الحق ناصعاً اباج

في صحيح البخاري : وقال ابن عباس في « اذا تمنى التقي

الشیطان في امنيته » : اذا حدث التقي الشيطان في حديثه

فيبطل الله ما يلقي الشيطان ويحكم الله آياته . ويقال امنيته قراءته

« الا أمانی » يقرؤون ولا يكتبون اه قتراد حكى تفسيري

الامنة بالقراءة الملفظ (يقال) بعد ما فسرهما بالحديث رواية

عن ابن عباس وهذا يدل على المغايرة بين التفسيرين فما يدعيه الشراح ان الحديث في رأى ابن عباس بمعنى التلاوة يخالف ظاهر العبارة ثم حكايته تفسير الامنية بمعنى القراءة بلفظ (يقال) يفيد انه غير معتبر عنده (وسيأتي ان المراد بالحديث حديث النفس)

وقال صاحب الابريز ان تفسير تمنى بمعنى قرأ والامنية بمعنى القراءة مروى عن ابن عباس في نسخة على بن أبي طلحة عن ابن عباس وزواها على ابن صالح كاتب الليث عن معاوية ابن صالح عن علي بن ابي طلحة عن ابن عباس وقد علم ما للناس في ابن ابي صالح كاتب الليث وان المحققين على تضعيفه . اهـ — هذا ما في الرواية عن ابن عباس وهي اصل هذه الفئنة وقد رأيت ان المحققين يضعفون راويها

واما قصة الغرائق فمع ما فيها من الاختلاف الذي سبق ذكره جاء في تميمها ان النبي صلى الله عليه وسلم لم يفتن لما ورد على لسانه وان جبريل جاءه بعد ذلك فعرض عليه السورة فلما بلغ الكامتين قال له ما جئتك بهاتين فحزن لذلك فأنزل الله عليه « وما أرسلنا » الآيات تسلياً له كما انزل لذلك قوله : « وان

كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك لتفتريَ علينا غيره
 وإذا لاتخذوك خليلاً . ولولا أن ثبنتناك لقد كدت تركن الهمم
 شيئاً قليلاً . إذاً لأذقناك ضعف الحياة و ضعف الممات ثم
 لاتجد لك علينا نصيراً » وفي بعض الروايات : ان حديث
 الغرائيق فشا في الناس حتى بلغ أرض الحبشة فساء ذلك المسلمين
 والنبي صلى الله عليه وسلم فنزلت « وما أرسلنا » الآية . قال
 القسطلاني في شرح البخاري : وقد طعن في هذه القصة
 وسندها غير واحد من الأئمة حتى قال ابن اسحق وقد سئل
 عنها : هي من وضع الزنادقة اه وكفى في انكار حديث ان
 يقول فيه ابن اسحق انه من وضع الزنادقة مع حال ابن اسحق
 المعروفة عند المحدثين

وقال القاضي عياض : ان هذا حديث لم يخرج به أحد من
 أهل الصحة ولا رواه أحد بسند متصل سليم وانما أولع به
 وبمثله المفسرون والمؤرخون المولعون بكل غريب المتلقفون
 من الصحف كل صحيح وسقيم . ثم نقل عن أبي بكر ابن الغلاء
 ما يدل على سقم الرواية واضطراب الرواة فيها وما يقضي عليها
 بالوهن والسقوط عن درجة الاعتبار . وقال الامام أبو بكر

ابن العربي - وكفى به حجة في الرواية والتفسير - : ان جميع ماورد في هذه القصة لا أصل له

قال القاضي عياض والذي ورد في الصحيح ان النبي صلى الله عليه وسلم قرأ « والنجم » وهو بمكة فسجد معه المسلمون والمشركون والجن والانس اه وقد يكون ذلك لبلاغة السورة وشدة قرعها وعظم وقعها . ثم قال القاضي : قد قامت الحجة وأجمعت الامة على عصمته صلى الله عليه وسلم ونزاهته عن هذه الرذيلة إمامن تمييه أن ينزل عليه مثل هذا من مدح آلهة غير الله وهو كفر أو ان يتسود عليه الشيطان ويشبهه عليه القرآن حتى يجعل فيه ما ليس منه ويعتقد النبي صلى الله عليه وسلم أن من القرآن ما ليس منه حتى يفهمه جبريل عليه السلام وذلك كله ممتنع في حقه صلى الله عليه وسلم أو يقول ذلك النبي صلى الله عليه وسلم من قبل نفسه عمداً وذلك كفر أو سهواً وهو معصوم من هذا كله وقد قررنا بالبراهين والاجماع عصمته صلى الله عليه وسلم من جريان الكفر على لسانه أو قلبه لا عمداً ولا سهواً . أو ان يشب عليه ما يليقه الملك مما لقي الشيطان أو يكون للشيطان علمه سبيل . أو ان تقول

على الله لا عمداً ولا سهواً ما لم ينزل عليه وقد قال الله تعالى
« ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا
منه الوتين » وقال « إذا لأذقناك ضعف الحياة وضعف المات
ثم لا تجد لك علينا نصيراً » (ووجه ثان) وهو استحالة هذه
القصة نظراً وعرفاً وذلك ان هذا الكلام لو كان كما روي
لكان بعيد اللثام . متناقض الاقسام . ممتزج المدح بالذم .
متخاذل التأليف والنظم . ولما كان النبي صلى الله عليه وسلم
ومن بحضرة من المسلمين . وصناديد المشركين . ممن يخفى
عليه ذلك . وهذا لا يخفى على ادنى . تأمل فكيف بمن رجح
حلمه . واتسع في باب البيان ومعرفة فصيح الكلام علمه .
(ووجه ثالث) انه علم من عادة المنافقين . ومعاندة المشركين .
وضعفه القلوب والجهلة من المسلمين . نفورهم لأول وهلة .
وتخليط العدو على النبي صلى الله عليه وسلم لأقل فئنة . وتعبيرهم
المسلمين والشماتة بهم الفينة بعد الفينة ^(١) وارتداد من في قلبه
مرض ممن أظهر الاسلام لأدنى شبهة . ولم يحك أحد في
هذه القصة شيئاً سوى هذه الرواية الضعيفة الاصل . ولو كان

(١) الفينة كالعيلة الساعة والحين

ذلك لوجدت قريش بها على المسلمين الصولة . ولأقامت بها اليهود عليهم الحجة . كما فعلوا مكابرة في قصة الاسراء . قال : ولا فئنة أعظم من هذه البلية لو وجدت . ولا تشغيب للمعادي حيثئذ أشد من هذه الحادثة لو أمكنت .^(١) وما ورد عن معاند فيها كلمة . ولا عن مسلم بسببها بنت شفة . فدل على بطلها . واجنثا أصلها . ولا شك في ادخال بعض شياطين الانس والجن هذا الحديث على بعض مغفلي المحدثين . ليلبس به على ضعفاء المسلمين . (ووجه رابع) ذكر الرواة لهذه القصة ان فيها نزلت « وان كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك » الآياتان وهذان الآيتان تردان الخبر الذي رووه لأن الله تعالى ذكر انهم كادوا يفتنونه حتى يفترى ونولا أن ثبته لكاديركن اليهم شيئاً قليلاً . فمضمون هذا ومفهومه ان الله عصمه من ان يفترى وثبته حتى لم يركن اليهم قليلاً فكيف كثيراً . وهم يروون في أخبارهم الواهية انه زاد على الركون والافتراء بمدح آلهتهم . وانه صلى الله عليه وسلم قال : افتريت على الله وقت ما لم يقل . وهي تضعف الحديث لو صح فكيف ولا صحة له . وهذا مثل

قوله تعالى في الآية الاخرى « ولولا فضل الله عليك ورحمته
 لهمت طائفة منهم أن يضلوك وما يضلون الا أنفسهم وما
 يضرونك من شيء » قال المشيرى ولقد طالبه قريش وثقيف
 اذ مر بأهلهم ان يقبل بوجهه اليها ووعدوه الايمان به ان
 فعل فما فعل ولا كان ليفعل . قال ابن الانباري ما قارب
 الرسول ولا ركن . انتهى المطلوب من كلام القاضى رحمه
 الله . وقد اورد بعد ذلك كثيراً من القول فى توهين الرواية
 وتكذيبها

أما ما ذكره ابن حجر من ان القصة رويت مرسله من
 ثلاث طرق على شرط الصحيح وانه يحتج بها الخ ما سبق فقد
 ذهب عليه كما قال فى البرز ان العصمة من العقائد التى يطلب
 فيها اليقين فالحديث الذى يفيد خرمها ونقضها لا يقبل على أي
 وجه جاء وقد عدَّ الأصوليون الخبر الذى يكون على تلك الصفة
 من الاخبار التى يجب القطع بكذبها . هذا لو فرض اتصال
 الحديث فما ظنك بالمراسيل وانما الخلاف فى الاحتجاج بالمرسل^(١)

(١) الحديث المرسل هو الذى سقط من سنده من بعد التابعي
 والجمهور يتوقفون عن الاحتجاج به لجواز أن يكون الساقط غير صحابي

وعدم الاحتجاج به فيما هو من قبيل الاعمال وفروع الاحكام
لا في أصول العقائد ومعاقد الايمان بالرسول وما جاؤا به فهي
هفوة من ابن حجر يغفرها الله له

هذا ما قاله الأئمة جزاهم الله خيراً في بيان فساد هذه
القصة وانها لا أصل لها ولا عبرة برأي من خالفهم فلا يعتمد
بذكرها في بعض كتب التفسير وان بلغ أربابها من الشهرة
ما بلغوا وشهرة المبطل في بطله لا تنفخ القوة في قوله ولا تحمل
على الأخذ برأيه

﴿ تفسير الآيات ﴾

والآن أرجع الى تفسير الآيات على الوجه الذي تحتمله
الفاظها وتدل عليه عباراتها والله أعلم
لا يخفى على كل من يفهم اللغة العربية وقرأ شيئاً من القرآن
ان قوله تعالى « وما ارسلنا من قبلك من رسول ولا نبي »
الآيات يحكي قدراً قَدْرًا للمرسلين كافة لا يعدونه ، ولا يقفون
دونه ، ويصف شئشنة عرفت فيهم وفي أمهم . فلو صح ما قال
اولئك المفسرون لكان المعنى ان جميع الانبياء والمرسلين قد
سَلَّطَ الشيطان عليهم ، فخلط في الوحي المنزل اليهم ، ولكنه

بعد هذا الخلط ينسخ الله كلام الشيطان ويحكم الله آياته الخ
وهذا من اقبح ما يتصور متصور في اختصاص الله تعالى
لانياته ، واختيارهم من خاصة اوليائه ، فلندع هذا الهذيان
ولنعد الى ما نحن بصدده

ذكر الله لنبيه حالاً من أحوال الانبياء والمرسلين قبله
لبين له سنته فيهم . وذلك بعد أن قال « وان يكذبوك فقد
كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وثمود وقوم ابراهيم وقوم لوط
واصحاب مدين وكذب موسى فأملت للكافرين ثم أخذتهم
فكيف كان تكبير . » - الى آخر الآيات . ثم قال : « قل
يا أيها الناس انما أنا لكم نذير مبين . فالذين آمنوا وعملوا
الصالحات لهم مغفرة ورزق كريم . والذين سمعوا في آياتنا
معاجزين اولئك أصحاب الجحيم . وما أرسلنا من قبلك من
رسول ولا نبي » الخ فالقصاص السابق كان في تكذيب الامم
لأنبيائهم ثم تبعه الامر الالهي بأن يقول النبي صلى الله عليه وسلم
لقومه اني لم أرسل اليكم الا لاندركم بعاقبة ما اتمم عليه ولأبشر
المؤمنين بالنعيم واما الذين يسمعون في الآيات والادلة التي اقيمها
على الهدى وطرق السعادة ليحولوا عنها الانظار ، ومحضوها

عن الابصار ، ويفسدوا أثرها الذي اقيمت لاجله ويعاجزوا
 بذلك النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين اى يسابقونهم ليعجزوهم
 ويسكتوهم عن القول وذلك بلبهم بالالفاظ وتحويلها عن مقصد
 قائمها كما يقع عادة من أهل الجدل والمماحكة — هؤلاء الضالون
 المضلون هم أصحاب الجحيم . واعقب ذلك بما يفيد ان ما ابتلي
 به النبي صلى الله عليه وسلم من المعاجزة في الآيات قد ابتلي به
 الانبياء السابقون فلم يبعث نبي في أمة الا كان له خصوم
 يؤذونه بالتأويل والتحريف ويضادون امانيه ويحولون بينه
 وبين ما يبتغي بما يلقون في سبيله من العثرات . فعلى هذا
 المعنى الذى يتفق مع مآلقيه الانبياء جميعاً يجب ان تفسر الآية
 وذلك يكون على وجهين

{ الاول } ان يكون تمنى بمعنى قرا والامنية بمعنى القراءة

وهو معنى قد يصح وقد ورد استعمال اللفظ فيه . قال حسان

ابن ثابت فى عثمان رضى الله عنهما :

تمنى كتاب الله اول ليله وآخره لاقى حمام المقادر

وقال آخر

تمنى كتاب الله اول ليله تمنى داود الزبور على رسل

غير ان الالتقاء لا يكون على المعنى الذى ذكره بل على
المعنى المفهوم من قولك « أقيتُ فى حديث فلان » اذا ادخلت
فيه ما ربما يحتمله لفظه ولا يكون قد أراده او نسبت اليه مالم
يقفه تمللا بان ذلك الحديث يؤدي اليه . وذلك من عمل
المعاجزين الذين ينصبون انفسهم لمحاربة الحق يتبعون الشبهة
ويسعون وراء الريبة فالالتقاء بهذا المعنى دأبهم ونسبة الالتقاء
الى الشيطان لانه مثير الشبهات بوساوسه ، مفسد القلوب
بدسائسه ، وكل ما يصدر من أهل الضلال يصح ان ينسب
اليه ويكون المعنى : وما أرسلنا قبلك من رسول ولا نبي الا اذا
حدث قومه عن ربه او تلاوحياً انزل اليه فيه هدى لهم قام فى
وجهه مشاغبون يحولون ما يتلوه عليهم عن المراد منه ، ويتقولون
عليه مالم يقفه ، وينشرون ذلك بين الناس ليبعدوهم عنه ، ويمعدلوا
بهم عن سبيله ، ثم يحق الله الحق ، ويبطل الباطل ، ولا زال
الانبياء يصبرون على ما كذبوا وأوذوا ويجاهدون فى الحق
ولا يعتدّون بتمجيز المعجزين ، ولا بهزء المستهزئين ، الى ان
يظهر الحق بالمجاهدة ، وينتصر على الباطل بالمجادة ، فينسخ الله
تلك الشبه ويجتثها من اصولها ، ويثبت آياته ويقررهما ، وقدم

وضع الله هذه السنة في الناس ليميز الخبيث من الطيب فيفتن
الذين في قلوبهم مرض وهم ضعفاء العقول بتلك الشبه والوساوس
فينطلقون وراءها ويفتن بها القاسية قلوبهم من أهل العناد
والمجاهدة فيتخذونها سنداً يعتمدون عليها في جدلهم ثم يتحصن
الحق عند الذين أوتوا العلم ويخلص لهم بعد ورود كل شبهة عليه
فيعلموا أنه الحق من ربك فيصدقوا به فتخبت وتطمئن له
قلوبهم. والذين أوتوا العلم هم الذين رزقوا قوة التمييز بين البرهان
القاطع الذي يستقر بالعقل في قرارة اليقين، وبين المغالطات
وضروب السفسطة التي تطيش بالفهم، وتطير به مع الوهم،
وتأخذ بالعقل تارة ذات الشمال واخرى ذات اليمين، وسواء
ارجعت الضمير في « أنه الحق » الى ما جاءت به الآيات المحكمة
من الهدى الالهي أو الى القرآن وهو أجلها فالمنى من الصحة
على ما يراه أهل التمكين .

هو لاء الذين أوتوا العلم هم الذين آمنوا وهم الذين هدام
الله الى الصراط المستقيم، ولم يجمل للوهم عليهم سلطاناً فيحيد
بهم عن ذلك النهج القويم. أما الذين كفروا وهم ضعفاء العقول
ومرضى القلوب أهـ أها العناد وزعماء الناطق وقساء الطباع

الذين لا تدين افئدتهم، ولا تبش للحق قلوبهم، فأولئك لا يزالون في ريب من الحق أو الكتاب لا تستقر عقولهم عليه، ولا يرجعون في متصرفات شؤونهم اليه، حتى تأتي ساعة هلاكهم بغتة فيلاقون حسابهم عند ربهم. أو ان امتد بهم الزمن، ومادهم الاجل، فسيصيبهم «عذاب يوم عقيم» يوم حرب يسامون فيه سوء عذاب القتل أو الاسر، ويقذفون الى مطارح الذل وقرارات الشر، فلا ينتج لهم من ذلك اليوم خير ولا بركة، بل يسلبون ما كان لديهم ويساقون الى مصارع الهلكة، وهذا هو العقم في أتم معانيه وأشأم درجاته

ما أقرب هذه الآيات في مغازيها الى قوله تعالى في سورة آل عمران «هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات. فاما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله الا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر الا أولو الالباب» وقد قال بعد ذلك: «ان الذين كفروا لن تُغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً وأولئك هم وقود النار» ثم قال: «قل للذين كفروا استغلبون وتحشرون

الى جهنم وبئس المهاد» الخ الآيات . وكان احدى الطائفتين من القرآن شرح للاخرى . فالذين فى قلوبهم زيغ هم الذين فى قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم . والراسخون فى العلم هم الذين اوتوا العلم . وهؤلاء هم الذين يعلمون انه الحق من ربهم فيقولون آمنا به كل من عند ربنا فتخبث له قلوبهم وان الله لهاديتهم الى صراط مستقيم . وأولئك هم الذين يفتنون بالتأويل . ويشغلون بقال وقيل . بما يلقى اليهم الشيطان . ويصرفهم عن سرايى البيان . ويميل بهم عن محجة الفرقان . وما يتكوّن عليه من الاموال والاولاد لن يغنى عنهم من الله شيئاً فستوافيهم آجالهم . وتستقبلهم أعمالهم . فان لم يوافهم الاجل على فراشهم . فسيفلبون فى هراشهم .^(١) وهذه سنة جميع الانبياء مع اممهم . وسبيل الحق مع الباطل من يوم رفع الله الانسان الى منزلة يميز فيها بين سعادته وشقائه . وبين ما يحفظه وما يذهب ببقائه . وكما لامدخل لقصة الغرائق فى آيات آل عمران لامدخل لها فى آيات سورة الحج : هذا هو الوجه الاول فى تفسير آيات « وما أرسلنا » الى آخرها على تقدير

ان تمنى بمعنى قرأ وان الأمنية بمعنى القراءة والله أعلم
 (الوجه الثاني في تفسير الآيات) ان التمني على معناه
 المعروف وكذلك الامنية وهي أفعوله بمعنى المنية وجمعها امانى
 كما هو مشهور . قال أبو العباس احمد بن يحيى : التمني حديث
 النفس بما يكون وبمالا يكون . قال : والتمني سؤال الرب وفى
 الحديث « اذ تمنى أحدكم فليتكثر فانما يسأل ربه » وفى رواية
 « فليكثر » قال ابن الاثير : التمني تشبهي حصول الامر المرغوب
 فيه وحديث النفس بما يكون ومالا يكون . وقال أبو بكر :
 تمنيت الشيء اذا قدرته وأحببت أن يصير الى . وكل ما قيل
 فى معنى التمني على هذا الوجه فهو يرجع الى ما ذكرنا ويتبعه
 معنى الامنية

ما أرسل الله من رسول ولانبي ليدعو قوما الى هدي
 جديد أو شرع سابق شرعه لهم ويحملهم على التصديق بكتاب
 جاء به نفسه ان كان رسولا أو جاء به غيره ان كان نبيا بُعث
 ليحمل الناس على اتباع من سبقه الا وله أمنية فى قومه وهى
 أن يتبعوه وينحازوا الى ما يدعوهم اليه ، ويستشفوا من داءهم
 بدوائه . ويعصوا أهوائهم باجابة ندائه . وما من رسول أرسل

الا وقد كان أحرص على إيمان أمته . وتصديقهم برسالاته . منه
على طعامه الذي يطعم . وشرابه الذي يشرب . وسكنه الذي
يسكن اليه . ويندو عنه ويروح عليه . وقد كان نبينا صلى الله
عليه وسلم من ذلك في المقام الاعلى . والمكان الاسمى . قال
الله تعالى : « فلعلك باخع نفسك علي آثارهم ان لم يؤمنوا بهذا
الحديث أسفًا » وقال « وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين »
وقال : « أفأنت تُكره الناسَ حتى يكونوا مؤمنين » وفي
الآيات ما يطول سرده مما يدل على أمانه صلى الله عليه وسلم
المتعلقة بهداية قومه واخراجهم من ظلمات ما كانوا فيه الى نور
ما جاء به

وما من رسول ولا نبي الا انما تمنى هذه الامنية السامية
التي الشيطان في سبيله العثرات . وأقام بينه وبين مقصده
العقبات . ووسوس في صدور الناس . وسلبهم الانتفاع بما
وهبوا من قوة العقل والاحساس . فثاروا في وجهه . وصدوه
عن قصده . وعاجزوه حتى لقد يعجزونه . وجادلوه بالسلاح
والقول حتى لقد يقهرونه . فاذا ظهروا عليه والدعوة في بدايتها
وسهل عليهم ايذاؤه وهو قليل الاتباع ضعيف الانصار ظنوا

الحق من جانبهم وكان فيما القوه من العوائق بينه وبين ما عمد
إليه فتنة لهم

غلبت سنة الله في أن يكون الرسل من أواسط قومهم
أو من المستضعفين فيهم ليكون العامل في الاذعان بالحق محض
الدليل وقوة البرهان وليكون الاختيار المطلق هو الحامل لمن
يدعى إليه على قبوله واكتماله يشارك الحق الباطل في وسائله .
أو يشاركه في نصب شركائه وحبائله . أنصار الباطل في كل
زمان هم أهل الانفة والقوة والجاه والاعتزاز بالاموال والاولاد
والعشيرة والاعوان والغرور بالزخارف . والزهو بكثرة المعارف .
وذلك الخصال انما تجتمع كلها أو بعضها في الرؤساء وذوي المكانة
من الناس فتدهلهم عن أنفسهم . وتصرف نظرهم عن سبيل
رشدهم . فاذا دعا الى الحق داع عرفته القلوب النقية من
أوضاع هذه الفواتن . وفزعت اليه النفوس الصافية والعقول
المستعدة لقبوله بملخصها من هذه الشواغل . وقتما توجد الا
عند الضعفاء وأهل المسكنة . فاذا التف هؤلاء حول الداعي
وظافروه على دعوته قام أولئك المبرورون يقولون « نأراك
الآن شرأ مثلنا وما نراك أتبعك الا اللذين هم أراذلنا بادي الرأي

وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين « فإذا استدرجهم الله على سنته وجعل الجدل بينهم وبين المؤمنين سجلاً افتن الذين في قلوبهم مرض من أشياعهم . وافتنواهم بما أصابوا من الظفر في دفاعهم . ولكن الله غالب على أمره فيمحق ما القاه الشيطان من هذه الشبهات . ويرفع هذه الموانع وتلك العقبات . ويهب السلطان لآياته فيحكمها . ويثبت دعائمها . وينشئ من ضعف انصارها قوة، ويخلف لهم من ذلتهم عزة ، وتكون كلمة الله هي العليا . وكلمة الشيطان هي السفلى . « فأما الزَّيْبُ فيذهب جُفَاءً وأما ما ينفع الناس فيمكث في الارض »

وفي حكاية هذه السنة الالهية التي أقام عليها الانبياء والمرسلين . تسليمة لنا نبينا صلى الله عليه وسلم عما كان يلاقي من قومه ووعد له بأن سيكمل له دينه . ويتم عليه وعلى المؤمنين نعمته . مع استغفارتهم الى سيرة من سبقهم . « أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون . ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين . أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم المأساء والضراء . وذكروا حجة . تقول الرسول والذين آمنوا معه

متى نصر الله الا ان نصر الله قريب « هذا هو التأويل الثاني في معنى الآية ويدل عليه ما سبق من الآيات ويرشد اليه سياق القصص السابق في قوله « وان يكذبوك فقد كذبت قبلهم قوم نوح » الخ . وأنت ترى ان قصة الغرائق لا تتفق مع هذا المعنى الصحيح . وهناك تأويل ثالث ذكره صاحب الابريز واني أنقله بحروفه وما هو بالبعيد عن هذا بكثير . قال بعد ذكر أماني الانبياء في أممهم وطمعهم في ايمانهم وشأن نبينا صلى الله عليه وسلم في ذلك على نحو يقرب مما ذكرناه في الوجه الثاني :

« ثم الامة تختلف كما قال تعالى « ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر » فأما من كفر فقد ألقى اليه الشيطان الوسوس القادحة له في الرسالة الموجبة لكفره . وكذا المؤمن أيضاً لا يخلو أيضاً من وساوس لانها لازمة للايمان بالغيب في الغالب وان كانت تختلف في الناس بالقلة والكثرة وبموجب المتعلقات . اذا نقرر هذا فعنى تمنى انه يتمنى لهم الايمان ويجب لهم الخير والرشد والصلاح والنجاح فهذه أمنية كل رسول ونبي والقاء الشيطان فيها يكون مما يلقيه في قلوب أمة الدعوة من الوسوايس

الموجبة لكفر بعضهم ويرحم الله المؤمنين فينسخ ذلك من قلوبهم ويحكم فيها الآيات الدالة على الوحدانية والرسالة ويبقى ذلك عز وجل في قلوب المنافقين والكافرين ليفتتوا به .
 تخرج من هذا ان الوساويس تلقى أولاً في قلوب الفريقين .
 معاً غير انها لا تدوم على المؤمنين وتدوم على الكافرين « اه
 وانت اذا نظرت بين هذا التفسير وبين ما سبقه تبين
 الاحق بالترجيح

لو صح ما قاله نقلة قصة الغرائق لارتفعت الثمة بالوحي وانتقض الاعتماد عليه كما قاله القاضي البيضاوي وغيره والكان الكلام في النسخ كالكلام في المنسوخ يجوز ان يلقي فيه الشيطان ما يشاء ولا نهدم أعظم ركن للشرائع الالهية وهو العصمة . وما يقال في المخرج عن ذلك ينفر منه الذوق ولا ينظر اليه العقل . على ان وصف العرب لآلهتهم بأنها الغرائق العلى لم يرد لا في نظمهم ولا في خطبهم ولم ينقل عن أحد ان ذلك الوصف كان جارياً على أسنتهم الا ما جاء في معجم ياقوت غير مسند ولا معروف بطريق صحيح وهذا يدل على ان القصة من اختراع الزنادقة كما قال ابن اسحق وربما كانت

منشأ ما أورده ياقوت . ولا يخفى ان الغرنوق والغرنيق لم يعرف في اللغة الا اسماً لطائر مائي اسود أو أبيض أو هو اسم الكركي أو طائر يشبهه . والغرنيق (بالضم و كزنبور وقنديل وسموأل وفردوس وقرطاس وعلابط) معناه الشاب الأبيض الجميل وتسمى الخصلة من الشعر المفتلة الغرنوق كما يسمى به ضرب من الشجر . ويطلق الغرنوق والغرائق على ما يكون في أصل العوسج اللين النبات . ويقال لمة غرائقة وغرائقية أي ناعمة تفيها الريح أو الغرنوق الناعم المستتر من النبات الخ ولا شيء في هذه المعاني يلائم الآلهة والاصنام حتى يطلق عليها في فصيح القول الذي يعرض على ملوك البلاغة وأمراء الكلام . فلا أظنك تعتقد الا أنها من مفتريات الاعاجم ومختلفات اللبسين ممن لا يميز بين حر الكلام ، وما استعبد منه اضعفاء الاحلام ، فراج ذلك على من يذهله اللوع بالرواية . عما تقضيه الدراية . « ربنا لاتزغ قلوبنا بعد إذ هدتنا وهب لنا من لدنك رحمة انك أنت الوهاب »



المقالة الثالثة

(مسألة زيد وزينب — أو ابطال التبنّي وتفسير الآيات في ذلك)
« نشرت في العدد السابع والعشرين من مجلة المنار لسنة الثالثة »

علم القراء مما كتبناه في وضع الحديث أسبابه (أي في المنار) ان
من الواضعين عن سوء القصد قوماً كانوا يتظاهرون بالصلاح
لأجل أن تقبل روايتهم وان منهم من كان يضع لقصد حسن
بحسب ما أداه اليه فكره القاصر وعقله الضعيف وان النتيجة
من هذا ان قبول الحديث لا يصح أن يكون موقوفاً على قوة
سنده ووضفه فقط بل يجب مراعاة أمور أخرى كأنطباقه على
قواعد الشريعة العامة وعقائد الدين الصحيحة وغير ذلك مما
لا محل لشرحه هنا. فاذا جاءت الرواية على خلاف ذلك بأن
كانت لا تنطبق على ما جاء في القرآن أو ما يليق بجلال الله
وتزييه وحرمة دينه وعصمة أنبيائه وكرامتهم وجب رفضها
وعدم قبولها سواء أظمن بسندها أم لا .

ومما يدخل في هذا الباب ما رووه في . مسألة زيد بن حارثة
وطلاقه لزئب (رضى الله عنهما) وان سببه عشق النبي صلى

الله تعالى عليه وسلم لها فقد كانت هذه الرواية المشؤمة التي
لطخت بها صفحات أكثر التفاسير ولم ينظر في اخلاصها بمقام
الرسالة وما يليق بتلك الاخلاق التي شهد الله لها بالعظمة -
شبهة على الإسلام ومجراة لغير أهله على الخوض في النبي
الاکرم صلى الله عليه وسلم والاستدلال بذلك على عدم صحة
نبوته حتى لا تكاد تجد كتاباً من الكتب التي ألفها دعاة
النصرانية في الطعن بدين الإسلام وتنفير أهله منه الا وهذه
المسئلة تكاثرتهم العظمى فيه بما يزيدونها من التشويه . وقد سأل
أحد فضلاء تونس في هذه الايام مولانا حكيم الامة . وخاتمة
الامة . الاستاذ الاكبر الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية
عن تفسير الآيات الواردة في هذه المسئلة فأجاب حفظه الله
تعالى بهذا الجواب . الذي هو لب الباب . واية الحكمة
وفصل الخطاب . وهو بنصه :

« وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ

عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى
النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرَازَ وَجُنَاكِمَا
لَكِنَّا نَكُونُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرْجٌ فِي أَزْوَاجٍ أُذْعِبْنَا لَهُمْ إِذَا

قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا

نزل قبل هذه الآية قوله تعالى « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضلّ ضلالاً مبيناً »

نزلت هذه الآية في زينب بنت جحش وهي بنت عمته صلى الله عليه وسلم أميمة بنت عبد المطلب وقد خطبها الرسول على مولاه زيد بن حارثة^(١) فأبت وأبى أخوها عبد الله بن جحش فنزلت آية « وما كان لمؤمن الخ » فلما نزلت الآية قالوا رضينا يا رسول الله فأنكحها إياه وساق عنه إليها مهرها ستين درهماً وخمارةً وملحفةً ودرعاً وازاراً وخمسين مدّاً من طعام وثلاثين صاعاً من تمر كذا يروى

فنحن نرى من جهة ان زينب كانت بنت عمّة النبي صلى الله عليه وسلم ربيت تحت نظره وشملها من عنايته ما يشمل البنت من والدها لاول الامر حتى انه اختارها لمولاه زوجة مع إبنائها وإبائها أخيها وعدّ إباءها هذا عصياناً ولا زالت كذلك حتى نزل في شأنها قرآن فكأنه ارغمها على رواجه لما ألهمه الله

(١) يقال خطب فلانة على فلان اي جعلها خطيبة له

من المصلحة لها وللمسلمين في ذلك . ولو كان للجمال سلطان على قلبه صلى الله عليه وسلم لكان أقوى سلطاناً عليه جمال البكر في روائه ونضرة جدته وقد كان يراها ولم يكن بينه وبينها حجاب ولا يخفى عليه شيء من محاسنها الظاهرة ولكنه لم يرغب لنفسه ورغبتها لمولاه فكيف يمتد نظره اليها ويصيب قلبه سهم حبها بعد ان صارت زوجة لعبد من عبيده نعم عليه بالعتق والحرية . لم يعرف فيما يغلب على مألوف البشر ان تعظم شهوة القريب وولعه بالقريب الى ان تبلغ حد العشق خصوصاً اذا كان عشيره منذ صغره بل المألوف زهادة الاقرباء بعضهم في بعض متى تعود بعضهم النظر الى بعض من بداية السن الى ان يبلغ حداً منه يجول فيه نظر الشهوة فكيف نطن أو نتوهم أن النبي الذي يقول الله له « ولا تمدن عينيك الى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا » يخالف مألوف العادة ثم يخالف أمر الله في ذلك ؟ أم كيف يخطر بالبال ان من عصم الله قلبه عن كل دنية يغلب عليه سلطان شهوة في بنت عمته بعد ان زوجها بنفسه لعبد من عبيده ؟

ومن جهة أخرى نرى ان النبي صلى الله عليه وسلم وهو

الرؤف الرحيم لم يبال بإبائه زينب ورغبتها عن زيد وقد كان لا يخفى عليه ان نفور قلب المرأة من زوجها مما تسوء معه العشرة وتفسد به شؤون المعيشة فما كان له وهو سيد المصلحين ان يرغم امرأة على الاقتران برجل وهي لا ترضاه مع ما في ذلك من الضرر الظاهر بكل من الزوجين . لا ريب اننا نجد من ذلك هادياً الى وجه الحق في فهم الآية التي نحن بصدد تفسيرها ذلك ان التصاق الادعاء بالبيوت واتصالهم بأنسابها كان أمراً تدين به العرب وتعمده اصلاً يرجع اليه في الشرف والحسب . وكانوا يعطون الدعيّ جميع حقوق الابن ويجرون عليه وله جميع الاحكام التي يعتبرونها للابن حتى في الميراث وحرمة النسب . وهي عقيدة جاهلية رديئة اراد الله محوها بالاسلام حتى لا يعرف من النسب الا الصريح . ولا يجري من احكامه الا ماله اساس صحيح . لهذا انزل الله « وما جعل ادعياءكم ابناءكم ذلكم قولكم بافواهكم والله يقول الحق وهو يهدي السبيل » ثم قال « ادعوهم لآبائهم هو اقسط عند الله » الخ . فهذا هو المعدل الالهي ان لا ينال حق الابن الا من يكون ابناً . أمّا المتبنيّ واللصيق فلا يكون له الا حق المولى والاخ

في الدين . فحرم الله على المسلمين ان ينسبوا الدعي لمن تبناه .
 وحظر عليهم ان يقتطعوا له شيئاً من حقوق الابن لاقبلا ولا
 كثيراً وشدد الامر حتى قال « وليس عليكم جناح فيما اخطأتم
 به ولكن ما تعدت قلوبكم وكان الله غفوراً رحيماً » فهو يعفو
 عن اللفظة تصدر من غير قصد بأن يقول الرجل لآخر هذا
 ابني او ينادى شخص آخر بمثل ذلك لاعن قصد التبني ولكنه
 لا يعفو عن العمد من ذلك الذي يقصد منه الا لصاق بتلك
 اللحمة كما كان معروفاً من قبل

مضت سنة الله في خلقه ان ما رسخ في النفس بحكم
 العادة لايسهل عليها التفصّي منه ولا يقدر على ذلك الا من رفعه
 الله فوق العادات . واعتقه من رق الشهوات . وجعل همته فوق
 المألوفات . فلا يطيبه الا الحق ^(١) ولا يحكم عليه الف ^(٢) ولا يغلبه
 عرف . ذلك هو النبي صلى الله عليه وسلم ومن يختصه الله بالتأبي به
 لهذا كان الامر اذا نهى الله عن مكروه كانت الجاهلية

(١) اطباء بالتشديد استماله قال ابن دريد :

لايطيني طمع مدنس اذا استمال طمع أو اطي

(٢) الالف بالفتح مصدر الف واما الالف بالكسر فهو الالف

عليه او احل شيئاً كانت الجاهلية تحرمه باذن النبي صلى الله عليه وسلم الى امثال النهي بالكف عن المنهي عنه والايان بضده وسارع الى تنفيذ الامر باتيان المأمور به حتى يكون قدوة حسنة ومثالا صالحاً تحاكيه النفوس وتحتذيه الهمم وحتى يخف وزر العادة وتخلص العقول من ريب الشبهة .

نادى صلى الله عليه وسلم في حبة الوداع بجرمة الربا وأول ربا وضعه ربا عمه العباس حتى يرى الناس صنيعه بأقرب الناس اليه واكرمهم عليه فيسهل عليهم ترك ما لهم وتنقطع وساوس الشيطان من صدورهم

على هذا السنن الالهى كان عمل النبي صلى الله عليه وسلم في أمر زيب . كبر على العرب ان يفصلوا عن أهلهم من الصقوه بأنسابهم من ادعيائهم كما دل عليه قوله تعالى « وتخشى الناس » الخ فعمد النبي صلى الله عليه وسلم على سنته الى خرق العادة بنفسه وما كان^(١) ينبغى له ولا من مقتضى الحكمة ان يكلف أحد الادعياء

(١) قوله (ما كان الخ) اى ليس من شأنه ذلك ولا من مقتضى

سنته وحكمته لان هذا تربية والتربية لا تدور الا على قطب الاسوة وفي مسألة الخلق في الحديدية عبرة ومثل فقد خالفوا الامر بالقول حتى خلقوا

الا باعد عنه ان يتزوج ثم يأمره بالطلاق ثم يأمر من كان قد تبناه ان
 يتزوج مطلقته في ذلك من المشقة مع تحكم العادة وتمكن الاشياء من ان
 من النفوس ما لا يخفى على أحد . فالله ان يتولى الامر بنفسه
 في أحد عتقائه لتسقط العادة بالفعل كما ألغى حكمها بالقول الفصل
 لهذا ارغم النبي صلى الله عليه وسلم زينب ان تزوج يزيد
 وهو مولاه وصفيه والنبي يجد في نفسه ان هذا الزواج مقدمة
 لتقرير شرع وتنفيذ حكم آلهي . وبعد ان صارت زينب الى
 زيد لم يكن ابؤها الاول ولم يسلس قيادها بل شمت بانفها
 وذهبت تؤذي زوجها وتفخر عليه بنسبها وبانها اكرم منه
 عرفا واصرح منه حرية لانه لم يجر عليها رق كما جرى عليه
 فاشتكى منها الى رسول الله صلى الله عليه وسلم المرة بعد المرة
 وهو عليه السلام مع علو مقامه يغلبه الحياء فيتئد ويتمكث في
 تنفيذ حكم الله ولا يعجل فكان يقول لزيد « أمسك عليك
 زوجك واتق الله » الى ان غلب أمر الله على امر الأنفة
 وسمح لزيد بطلاقها بعد ان مضى العيش معها ثم تزوجها بعد
 ذلك رسول الله ليمزق حجاب تلك العادة ويكسر ذلك الباب
 الذي كان مغلقاً دون مخالفتها كما قال « لكيلا يكون على

المؤمنين حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُمْ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ
 اللَّهُ مَفْعُولًا» وَآكِدٌ ذَلِكَ بِالتَّصْرِيحِ فِي نَفْيِ الشَّبْهَةِ بِقَوْلِهِ: «مَا كَانَ
 مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَٰكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ
 بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا» هَذِهِ هِيَ الرَّوَايَةُ الصَّحِيحَةُ وَالْقَوْلَةُ الرَّاجِعَةُ
 ذَكَرَ اللَّهُ نَبِيَهُ بِمَا وَقَعَ مِنْهُ لِيُزِيدَهُ تَشْبِيهًُا عَلَى الْحَقِّ وَلِيُدْفِعَ
 عَنْهُ مَا حَاكَ فِي صُدُورِ ضَعْفِ الْعَقُولِ وَمَرْضَى الْقُلُوبِ فَقَالَ
 «وَإِذَا تَقُولُ لِلذِّي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ» بِالْإِسْلَامِ «وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ»
 بِالْعَتَقِ وَالْحَرِيَةِ وَالْإِصْطِفَاءِ بِالْوِلَايَةِ وَالْحُبَّةِ وَتَزْوِيجِهِ بِنْتِ عَمَّتِكَ
 وَتَعْظَمُهُ عِنْدَ مَا كَانَ يَشْكُو إِلَيْكَ مِنْ إِيْذَاءِ زَوْجِهِ «أَمْسَكَ عَلَيْكَ
 زَوْجَكَ وَأَتَقَ اللَّهُ» وَأَخْشَهُ فِي أَمْرِهَا فَإِنَّ الطَّلَاقَ يَشِينُهَا وَقَدْ
 يُؤْذِي قَلْبَهَا وَارْعَ حَقَّ اللَّهِ فِي نَفْسِكَ أَيْضًا فَرَبَّمَا لَا تَجِدُ بَعْدَهَا
 خَيْرًا مِنْهَا — تَقُولُ ذَلِكَ وَأَنْتِ تَعْلَمُ أَنَّ الطَّلَاقَ لَا بَدَّ مِنْهُ بِمَا
 أَلْهَمَكَ اللَّهُ أَنْ تَمَثَّلَ أَمْرَهُ بِنَفْسِكَ لِتَكُونَ أَسْوَةً لِمَنْ مَعَكَ وَلِمَنْ
 يَأْتِي بِعَدِّكَ وَإِنَّمَا غَلِبَكَ فِي ذَلِكَ الْحَيَاءُ وَخَشْيَةُ أَنْ يَقُولُوا تَزَوَّجَ
 مُحَمَّدٌ مَطَاقَةَ مُتَبَدِّئَاهُ فَانْتِ فِي هَذَا «تَخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ»
 مِنَ الْحُكْمِ الَّذِي أَلْهَمَكَ «وَتَخْشَى النَّاسَ وَأَنْتِ» الَّذِي أَمَرَكَ
 ذَلِكَ كُلَّهُ «أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ» فَكَانَ عَلَيْكَ أَنْ تَمْضِيَ فِي الْأَمْرِ مِنْ

اول وهلة تعجيلاً بتنفيذ كلمته وتقرير شرعه . ثم زاده بياناً بقوله
 « فلما قضى زيد منها وطراً » اي حاجة بالزواج « زوجها الكيلا
 يكون على المؤمنين حرج في أزواج ادعيائهم اذا قضوا منهن وطراً »
 لترفع لو حشة من نفوس المؤمنين ولا يجدوا في أنفسهم حرجاً من ان
 يتزوجوا نساءً كنَّ من قبل زوجات لادعيائهم « وكان امر الله مفعولاً »
 وأما ما رووه من ان النبي مرَّ بيت زيد وهو غائب
 فرأى زينب فوقع منها في قلبه شيء فقال : سبحان مقلب
 القلوب . فسمعت التسبيحة فنقلتها الى زيد فوقع في قلبه ان
 يطلقها الخ ما حكوه فقد قال الامام أبو بكر بن العربي انه
 لا يصح وان الناقلين له المحتجين به على مزاعمهم في فهم الآية
 لم يقدرُوا مُقام النبوة حق قدره ولم تصب عقولهم من معنى
 العصمة كنهها وأطال في ذلك وأذكر من كلامه ما يؤيد
 ما ذكرنا في شأن هذه الروايات قال بعد الكلام في عصمة
 النبي صلى الله عليه وسلم وطهارته من العيب في زمن الجاهلية
 وبعد ان جاء الاسلام « وقد مهدنا لك روايات كلها ساقطة
 الاسانيد وانما الصحيح منها ما رووي عن عائشة انها قالت لو كان
 النبي صلى الله عليه وسلم كاتماً شيئاً من الوحي لكتتم هذه الآية

«وإذ تقول الذي أنعم الله عليه» يعني بالاسلام «وأنعمت عليه»
 فأعتقته «أمسك عليك زوجك» الى قوله «وكان أمر الله مفعولا»
 وإن رسول الله لما تزوجها قالوا تزوج حليمة ابنة فأنزل الله
 «ما كان محمد أباً أحدٍ من رجالكم» الآية وكان رسول الله
 تنبأه وهو صغير فلبث حتى صار رجلاً يقال له زيد بن محمد
 فأنزل الله «أدعوهم لا بأهمهم هو أقسط عند الله» يعني إنه أعدل
 عند الله قال القاضي وما وراء هذه الآية غير معتبر فأما قولهم
 ان النبي صلى الله عليه وسلم رآها فوقعت في قلبه فباطل فانه
 كان معها في كل وقت وموضع ولم يكن حينئذ حجاب
 فكيف تنشأ معه وينشأ معها ويلحظها في كل ساعة ولا تقع في
 قلبه الا اذا كان لها زوج وقد وهبته نفسها وكرهت غيره
 فلم يخطر ذلك به فكيف يتجدد هوى لم يكن حاشا لذلك
 القلب المطهر من هذه العلاقة الفاسدة وقد قال سبحانه وتعالى
 «ولا تمدن عينيك الى ما تمننا به أزواجاً منهم زهرة الحياة
 الدنيا لنفننهم فيه» والنساء أفتن الزهراء وأنشر الرياحين ولم
 يخالف هذا في المطلقات فكيف في المنكوبات المحبوسات»
 ثم ساق الكلام في تفسير الآية على حسب ما صح في الواقعة

ولولا خوف التطويل لنقلت كلامه بحروفه

سبحان الله كيف ساغ لقوم مسلمين أن يعنقدوا بمثل هذه الروايات وقد علموا أن الله لم يدع لنبيه أن يعرض عن ابن أم مكتوم ويتصدى لصناديد قريش طمعاً في إسلامهم حتى عاتبه على ذلك في قوله « عبس وتولى » الخ الآيات مع أنه لم ينصرف عن الأعمى إلا لاشتغاله بما كان يعدّه في نفسه خيراً للدين ولم يكن رغبة في جاه ولا شرهاً إلى مال ولا طموحاً إلى لذة . فلو صحّت الرواية التي زعموها في شأن زينب لكان العتاب على تلك التسيّجة بمسمع من زينب ثم على الزواج بعد الطلاق كما أشار إليه في قصة داود عليه السلام . وما كان محمد في علو مقامه ورفعة منزلته من النبوة لتطمح نفسه إلى التلذذ ببنت عمته وزوجة مولاة ولا أن يسمعها ما يدل على شغفه بها ولا أن تضعف عزيمته عن قمع شهوته وكبح جماحها وما كان رب محمد يعلل شهوته ويرفّه من هواه فيما يخالف أمره وهو الذي نهاه أن يمدّ عينيه إلى ما متع الله به الناس من زهرة الحياة الدنيا ومن زهرتها النساء . تناسى قدر محمد عن ذلك وتعالى شأن ربه عن هذا علواً كبيراً

أما والله لو لا ما أدخل الضعفاء أو المدلسون من مثل هذه الرواية ما خطر ببال مطلع على الآية الكريمة شيء مما يرمون اليه فان نص الآية ظاهر - بلي لا يحتمل معناه التأويل ولا يذهب الى النفس منه الا ان العتاب كان على التمثل في الامر والتريث به وان الذي كان يخفيه في نفسه هو ذلك الامر الالهي الصادر اليه بأن يهدم تلك العادة المتأصلة في نفوس العرب وان يتناول المعول لهدمها بنفسه كما قدر له ان يهدم أصنامهم بيده لأول مرة عند فتح مكة وكما هو شأنه في جميع ما نهى عنه من عاداتهم . وهذا الذي كان يخفيه في نفسه كان الله مبيديه بأمره الذي أوحاه اليه في كتابه وبتزويجه زوجة من كانوا يدعونه ابنا له كما تقدم بيانه . ولم يكن يمنعه عن ابداء ما أبدى الله الاحياء الكريمة ، وتوَدُّةُ الحليم ، مع العلم بأنه سيفعل لا محالة لكن مع معاونة الزمان

أذكر لطيفة لبعض الاذكياء جرت بمحضر مني وذلك اننا كنا نرور أحد الاساتذة الاميركانين في مدينة بيروت فجاء في الحديث ذكر قوله تعالى « الذي أحسن كل شيء خلقه » فقال الاستاذ الاميريكي : حتى زنت زوجة زيد

ابن حارثة . يشير بقوله هذا الى تلك الحادثة ويعرض بعشقه صلى الله عليه وسلم لزينب (على مازعموا) فقال له صاحبي : سبحان الله انكم تستغلون بعلوم السموات والارض ولا تستعملون عقولكم في أقرب الاشياء اليكم مع انكم في المشهور عنكم من أشد الناس ولما بالبحث في الاديان . ان الله أمر نبيه ان يتزوج زوجة من دعاه ابناً له ليبين للناس بالفعل انه ليس كل من لقب بالابن يكون على الحقيقة ابناً فان كان المسيح قد دعي في لسان الانجيل بالابن فليس هذا على الحقيقة وانما الابن الحقيقي من وُلد من أبيه ولادة صحيحة « ان في ذلك لذكرى للعالمين » والله أعلم .

﴿ المقالة الرابعة في مسألة زيد وزينب ﴾

(ايضاح وخلاصة — رد شبهة مسيحي فاضل)

لقد كان لما كتبه مولانا مفتي الديار المصرية في هذه المسألة ونشرناه في الجزء ٢٧ اجمل وقع . وأجل نفع . فتعشمت به سحب الشبهات ، . وانحلت عقد المشكلات . وسكنت حركة الشكوك التي كان يثور عجاجها . وتلاطم امواجها . وينهر

تجاجها . وتدفَّق ألباجها . وشفيت امراض أعيان الاطباء
علاجها . وقطعت من شخوص المطاعن حلاقيمها واوداجها
وهكذا يقذف بالحق على الباطل . فيدمغه فاذا هو زاهق وزائل .
الا ان كلام الاستاذ في علو اسلوبه . وبديع تأليفه
وتركيبه . ورسوخ عرقه في الفصاحة . وبعده غوره في البلاغة
لم تجلّ جميع مقاصده لجميع الازهان . ولم تجلّ عرائس حسنه
لكل من له عينان . ومن الناس من اعشاه نوره . وراعت
فؤاده حوره . فاشتبه عليه سلطان البرهان . بسحر البيان .
فتوهم انه مسحور الوجدان . لامقنن العقل والجنان . وتخيّل
انه مختلب بعبارة القلم واللسان . لامجتذب ببراعة الحجّة الى
قرارة الاقرار والاذعان . اعني بهذا وما قبله من استزادنا في
المسئلة بيانا . ليزداد الذين آمنوا ايمانا . ومن قال من فضلا .
المسيحيين . ان الشبهة لم تنكشف عن غير المسلمين . وانما
غشيتها من فصاحة الاستاذ وبلاغته . وبراعته في عبارته . نور
علاظمتها . وشغل النظر عن تشويه صورتها . وان من يضع
على عينيه منظارا ملوّن الزجاج . ينكسر به شعاع البلاغة الوهاج
ممكنه ان يبصر الطريقة . ويدرك الحقيقة . قال هذا وانشأ

ينتقد كلمات الاستاذ رأى أنها إقناعية . وليست حقيقة واقعية .
 منها قول الاستاذ « ولو كان للجمال سلطان على قلبه صلى الله
 عليه وسلم لكان أقوى سلطانه عليه جمال البكر في رؤائه
 ونضرة جدته » الخ وذهب هذا المعترض في نقض هذه
 المسئلة الى ان من البنات من تكون دميمة في طور البكاره
 حتى اذا ماتزوجت اكتست حلل الحسن والبهاء . والجمال
 والرواء . فيحتمل أن السيدة زينب كانت من هذا القبيل . وان
 كان في الوجود أقل القليل

ومنها قول الاستاذ « لم يعرف في مألوف البشران تعظم
 شهوة القريب وولعه بالقريب خصوصاً اذا كان عشيره منند
 صغره » الخ قال المعترض انه يحفظ وقائع متعددة تعلق فيها
 الاقرباء بعضهم ببعض حتى كان من ذلك ما لاخبرفيه . وكذلك
 شأن من اشرب قلبه إنكار شيء او إثبانه يتعلق بالشذوذ
 ويتشبت بالاستثناء ويترك القواعد العامة لا يحفل بها . وعهدي
 باذكياء المسيحيين انهم يرون أقوى اعتراض لهم على المسلمين
 في احتجاب النساء ان الحجاب والمنع من اسباب ازدياد الرغبة
 وقوة الداعية الى التطلع والرؤنة . وان في الاختلاط أنساً ينتهي

بالمثل والزهادة كما هو المطرد في العادة. لاسيما بالنسبة للاقربين
ورأيت من المسلمين من يستدل على صحة هذا القول
بكون النفوس الى النساء المسلمات المتحجبات . أميل منها الى
النساء الاوروبيات . واكثر تشوفاً . وأشد تطلماً . مع ان
الاوربيات في الجملة اجمل . وزيتهن اكمل . وما ذلك الاهن
معروضات على الانظار . مألوفات للابصار . وكل معروض
مهان . والمألوف لا يعظم به الاثنان
منعت شيئاً فاكثرت الولوع به

احب شيء الى الانسان ما منعا

ولنلو عنان النظر عن هذا وذاك وننظر الى تلك الواقعة
من غير ملاحظة ان من مقتضى الطباع السليمة . ومن شأن
النفوس الكبيرة . — التي لا ينكر مناظرنا المسيحي الفاضل
ان نفس محمد (صلى الله عليه وسلم) منها وان انكر نبوته —
ان لا يقع منها الشذوذ بشدة العشق للقريب المألوف بحيث
ينتهي الى ان صاحب النفس الكبيرة المتصدي لتأسيس دين
وشريعة يزاحم عبداً من عبيده على امرأة زرجه بها لعشقه لها
بعد زهده فيها وان بدخا . ذلك في الشريعة التي تؤسسها . ثم

يظهر للملأ أن الله تعالى أتبه على ذلك بمثل قوله « وتمشى
الناس والله أحق أن تخشاه » . ولو كانت الواقعة كما يتوهم
القوم وكان محمد هو واضع القرآن ومؤلفه لما جعل نفسه
ملوماً وأظهر انه إنما أبطل التبني في دينه لحظ نفسه وارضاء
شهوته وجعل هذه الفضيحة معجلة عليه في الكتاب الذي
أمر بكتابه دون سائر كلامه وبشر بانه ينتشر في مشارق
الارض ومغاربها وانه يبقى مقروءاً متبعاً مادام الناس في
هذا العالم

قال مناظرنا ان الاستاذ كتب للمسلمين وكلامه مبني
على التسليم بنبوته محمد وهو لا ينهض حجة على النصارى الذين
ينظرون في المسئلة نظراً تاريخياً وقد ألمعنا الى هذا من قبل
ولذلك بنينا الكلام على ان محمداً رجل مصلح باسم النبوة نزل
جدلياً وان كان الذين يعتقد فيهم صاحبنا وقومه النبوة ليس
لهم من الأثر الاصلاحى الدينى عشر معشاره . أما كونه
مصلحاً فلا ينكره منهم عاقل وقد قال لي الدكتور فانيك
الشه اذ مبدأ الاصلاح الذى وضعه محمد هو أعظم المبادئ
واقواها وهو الوحدة في الاعتقاد والاجتماع . . ورأيت بعض

من كتب في تاريخ العرب من الافرنج جعل تاريخهم قسمين
 قسماً سماه (ما قبل الاصلاح المحمدي) وقسماً سماه (ما بعد
 الاصلاح المحمدي) وكل هذا من البديهيات فلنرجع الى
 أصل المسئلة

المخالف موافق لنا في شيء واحد وهو ان الآيات الواردة
 في المسئلة متضمنة لابطال التبني الذي كانت العرب تدين به
 ولكنه يدعي ان ابطال هذه البدعة لم يكن مقصوداً اولاً
 وبالذات وانما كان حيلة للتوسل الى تزوج محمد بزینب بعد ان
 تزوجها عتيقه ومتبناه زيد بن حارثة وراها عنده قد زادت
 حسناً عما كان يعهد . ولو كان الغرض ابطال التبني وما يترتب
 عليه من الاحكام الجائرة والمفاسد الضائرة لعهد بتنفيذ ذلك الى
 غيره من اتباعه . ونجيب عن هذا من وجوه تضمنها كلام
 الاستاذ واستلزمها

(الأول) من المشهود المعهود في البشر ان العادات
 والتقاليد متى صارت عامة يصعب على النفوس ان تتركها بمجرد
 أمر مصلح لاسيما في اول زمن الدعوة الى الاصلاح ولا يقدم
 على الاتداء بخرق العادة وتمزيق حجب التقليد الا أصحاب

العزائم الكبيرة وهم المصلحون الذين يستهدفون لسهام الانتقاد العام ويحملون في سبيل الاصلاح كل إهانة وسخرية من الدهماء وجماهير الناس ليكونوا قدوة لغيرهم في ذلك . وقد اتفق علماء التربية على ان ملاكها وقوامها الاقتداء والتأسي لا القول والارشاد اللفظي . وكذلك كان شأن النبي (صلى الله عليه وسلم) في كل ما أبطله من اعتقاداتهم وتقاليدهم وعاداتهم يبدأ بنفسه ثم بأقرب الناس اليه . وقد مثلنا للأول في هامش . مقالة الاستاذ بمسئلة الخلق في الحديدية وكيف خالف النبي جميع الصحابة حتى خلق بالفعل فاقتدوا به ومثل الاستاذ بابطال الربا . ويفرض المخالف انه دخل في دين جديد مقتنعا به ومعتقداً صحته وان القائم بالدعوة الى هذا الدين امره بان يتزوج بأخته لأن دينه يحكم بذلك أليس يصعب عليه الامتثال أشد الصعوبة بحيث يرجح مخالفته . هذا واننا نرى اهل كل دين قد خالفوا بعض احكام دينهم اتباعا للعادات التي صارت عامة ويصعب عليهم الرجوع الى الأصل . واذا كان الامر بهذه الدرجة من الصعوبة فالعاقل لا يقدم على تكليف الناس به بمجرد القول خوفاً من اضطرارهم الى مخالفته التي تفسد العمل وتؤدي الى

خلاف المقصود

(الثاني) لو انه (صلى الله عليه وسلم) عمد الى تنفيذ هذا الحكم بغيره لاحتاج الى الأمر بعدة أمور بعضها أشد من بعض ومنها ما هو خلاف تعاليمه الدينية . (أحدها) ان يأمر بعض من تبني بان يتزوج وربما كان يقل في المسلمين عدد الادعياء الذين عندهم الاستطاعة الشرعية للتزوج مع ان الذين تبنوهم مسلمون وفي سن قابل للزواج وربما يقع الامر لغير المستطيع من حيث لا يعلم الأمر لانه لم يكن عارفا بجميع شؤون الناس الخصوصية والمنزلية . على أن من شأن من يجب ان يطاع في كل أمر أن لا يتعرض للامور الخصوصية المباحة الا بالنسبة لا قرب الناس اليه بل هذا شأن جميع العقلاء وهذا الوجه أهون مما بعده (ثانيها) أن يأمره بعد الزواج بالطلاق والامر بالطلاق منكر وانما أباحه الشرع للضرورة ولذلك قال صلى الله عليه وسلم في التفسير منه « اقبض الحلال الى الله الطلاق » رواه أبو داود من حديث ابن عمر رضی الله عنهما . ثم ان هذا المتزوج لا يبعد أن يحصل بينه وبين من يتزوجها من الالفة والمحبة ما يصعب معه الفراق . ويتعاضى به الخضوع لامر الطلاق

(ثالثها) ان يأمر من كان تبنّي هذا المطلق بأن يتزوج بالمطلقة
ويُتوقع في هذا الامر امور منها أن هذا التبنّي قد تنفر نفسه
منها لذاتها بان يستبشع صورتها أو يكون عارفاً من طباعها مالا
يمكنه معه معاشرتها وقد يكون متزوجاً بغيرها ولا يستطيع
الجمع بين امرأتين ثم ان هنا ملاحظة أهم من كل ما ذكر وهو
ان تعدد الزوجات مشروط في القرآن بعدم الخوف من ترك
العدل بين الزوجات ولا شك ان الذي يريد الزواج بامرأة
متبنّاه مجرد الامتثال لأمر النبي صلى الله عليه وسلم يخاف
من عدم العدل بين الزوجة الجديدة التي يأخذها كارها وبين
الاولى التي كان آلفاً لها ومستأنساً بمعاشرتها وعند ذلك لا يصح
النكاح . (رابعها) انه قد يرضى هو ولا ترضى هي لانها فتية
وهو شيخ مثلاً ولا يخفى شيء من هذه الامور على ذلك الرجل
العظيم الذي جاء بتعاليم واعمال قلبت هيئة الارض وغيرت
نظام الامم سواء كان نبياً (كما هو الواقع) أو لم يكن (كما هو
وأي المخالف)

(الوجه الثالث) ان هذا المصلح الحكيم اختار صورة

لا نطال تلك العادة الدنسة الحاهلة خالة من كل المحظورات

المشروحة في الوجه الثاني وذلك بان يزوج متبناه بامرأة يقضي العقل بانه يختار هو واياها الفراق عن رضى لمدم الكفاءة ثم يتزوجها هو ولا شك انها ترضاه لما هو معلوم من القرابة والجمال والكمال وكذلك كان

(الوجه الرابع) ان الذي يدل مع ما تقدم على ان الامر مقصود للنبي (صلى الله عليه وسلم) منذ خطب زينب لزيد (رضى الله عنهما) إلحاحه فيه وعنايته الكبرى به. وقد خطب هو نساء ولم يتزوج بهن وتزوج بعدة نساء ولم يذكر في القرآن شئ من ذلك لان القرآن كما قلنا لم يذكر فيه الا أهم المهمات في الدين حتى انه لم يذكر فيه هيئة الصلاة ولا عدد ركعاتها ولا تحديد أوقاتها فمدم مبالاته بإبائها وتمنعها وإبائه أخيها الايمكر ان يكون لمصلحتها ولا لمصلحة زيد لان العقل قاض بانه لا ينعم معها بال مع هذا النفور والاباء وما هو معلوم من أنفة اشراف العرب كبنى هاشم وبنى المطالب وهي من صميمهم وكانت لا ترز لها كفوء الا النبي (صلى الله عليه وسلم) فلم يبق لهذا الالحا والتحريم عليها بالرضى به الا قصد إبطال تلك البدعة الذميمة بأقرب وجهه وأعمدها عن الضرر والضرار

(الوجه الخامس) ان السورة التي ذكرت فيها القصة
 جاء في فاتحتها « وما جعل ادعياءكم ابناءكم ذالكم قولكم بافوا همكم
 والله يقول الحق وهو يهدي السبيل . اذعوهم لا بائهم هو
 اَقْسَطُ عِنْدَ اللّٰهِ فَاَنْ لَّمْ تَعْلَمُوْا اَبَاءَهُمْ فَاٰخِذُوْا بِمَوَالِيكُمْ
 الْاَيَةُ . وجاء فيها بعد هذا وقبل ذكر القصة « لقد كان لكم في
 رسول الله اسوة حسنة » فقد ابطال التنبى بالقول ولم يعمل
 بمقتضاه احد قبله (صلى الله عليه وسلم) فهذا التمييد . مع ذلك
 التشديد . برهان كاف على ذلك القصد الحميد . ومناف لزعم
 الزاعمين ان قصد النبي صلى الله عليه وسلم التزوج بزيب كان
 بعد مارآها في بيت زيد رضي الله عنه . وفي هذا كفاية لغير
 المعاند والله اعلم .

نشرنا هذه المقالة في الجزء التاسع والعشرين من مجلد مجلة
 « المنار » الرابع بعد مناظرة في مقالة الاستاذ بيني وبين احد
 فضلاء المسيحيين كما علم من صدر المقالة

فهرست

❦ ما اشتملت عليه هذه المجموعة ❦

	صحيفة
خطبة الناشر	٢
مقدمة التفسير	٥
للتفسير وجوه شتى	٦
القرآن حجة قائمة	٩
مراتب التفسير	١٠
ما الذي يجب على الناس من التفسير	١٥
الحاجة الشديدة الى التفسير اليوم وفيما بعده	١٦
جاهلية الناس اليوم أعرق في الجهل من الجاهلية الاولى	١٩
تأثير القرآن العظيم واعثناء العلماء الاولين باللغة العربية	٢٠
سورة الفاتحة	٢١
بيان ان الفاتحة هي أول ما أنزل على الاطلاق من القرآن	٢٢
« ما احتوى عليه القرآن واشتمال الفاتحة عليه اجمالا	٢٣
التوحيد أهم ما جاء لاجله الدين	٢٤

	صحيفة
تفسير البسملة	٢٨
« الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم	٣٤
« مالك يوم الدين	٣٧
« اياك نعبد و اياك نستعين	٤٠
« اهدنا الصراط المستقيم	٤٨
« صراط الذين انعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين	٥٥
اقسام الضالين	٥٩
المقالة الاولى في افعال العباد ونسبتها تارة اليهم وتارة الى	٦٤
الله تعالى	
المقالة الثانية مسألة الغرائق وتفسير الآيات المشتبه بها	٧٢
تمهيد	٧٣
مصارعة الحق والباطل	٧٤
رفع الاسلام مقام الانبياء وحكمه بعضهم	٧٦
عيث عشاق الروايات و افسادهم في الدين	٧٧
الروايات واختلافها في مسألة الغرائق	٧٨
مخالفة المحققين لها	٧٩

صحيفة

- ٧٩ الرجوع الى أهل العلم الصحيح في ازالة الحيرة
- ٨٠ الطمن في تفسير التمني بالقراءة
- ٨١ الطمن في حديث الفرائق رواية ودراية
- ٨٢ عصمة الانبياء
- ٨٢ الوجود الدالة على بطلان حديث الفرائق
- ٨٦ تفسير الآيات على الوجه الموافق لاسلوب القرآن
- المنطبق على العقائد الصحيحة
- ٨٧ السياق وسابق الآيات
- ٨٨ التفسير الاول وفيه المقابلة بين الآيات وآية سورة
- آل عمران في المحكمات والمتشابهات
- ٩٣ الوجه الثاني في تفسير الآيات
- ٩٣ امانى الانبياء
- ٩٤ سنة الله في الانبياء وفي أقوامهم
- ٩٧ تأويل ثالث
- ٩٩ اللغات في الغرثوق ومعانيه
- ٩٩ عدم ملائمة معانيه لوصف الآلهة وانتفاء نقل ذلك

عن العرب

١٠٠ المقالة الثالثة مسألة زيد وزينب أو ابطال التبنى

١٠١ تفسير الآيات في ذلك

١١٣ المقالة الرابعة إيضاح وخلاصة في مسألة زيد وزينب أيضاً

ورد شبهة مسيحي

(تنبيه) لدى المراجعة بعد الطبع تبين لنا ثلاث غلطات فاقضى

بيانها لاصلاحها وهي

صواب	خطأ	سطر	صحيفة
حسنة يقولوا هذه	حسنة يقولوا	٧	١
الفهم	المدارك	١٣	١٩
تسبق	تسبق	٩	٢٢

التكليف

يباع هذا الكتاب بقرتين ونصف صاعا ويطاب من الاما

الآتية في مصر

مكتبة السيد مصطفى الحلبي واخوية بخان الخليلي

مكتبة مطبعة الموسوعات بشارع محمد علي

» الترقى بشارع عبد العزيز

» امين هندية بالموسكي

» الهلال ومكتبة مطبعة المعارف بالفحاله

» الشيخ محمد المليجي بشارع الحلوجي بقرب الازهر

» الشيخ محمد سعيد الرافعي بالسكة الجديدة

» الشعب بشارع محمد علي

وفي الازهر من بيومي عبد العال

وفي اسكندرية من مكتب جريدة المؤيد

وفي بيروت من السيد عمر الحمصاني صاحب المكتبة الحميدية

ومن ادارة جريدة ثمرات الفنون الفر

سوفي مكة المشرفة من السيد محمد واحد عثمان السكاف

عہد

۴
۲۹۷۶۱۳

آخری درج شدہ تاریخ پر یہ کتاب دستعار
لی گئی تھی مقررہ مدت سے زیادہ رکھنے کی
صورت میں ایک آنہ یومیہ دیرانہ لیا جائے گا۔
